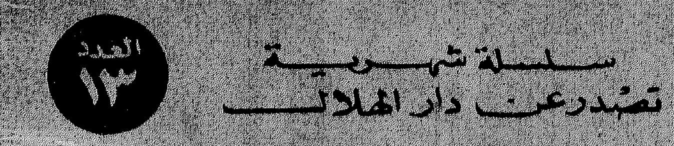
كتاب الهلال

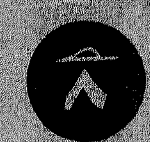
نفرتيتي

ربة الجمال والتاج

تأليف

صوفي عبد الله





كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها اميل زيدان وشكري زيدان

مدير التحرير طاهر الطناحي

....

العدد ١٣ ـ مايو ١٩٥٢ ـ شعبان ١٣٧١

No. 13 — May 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون ٧٩٨١٠ (نمرة مخطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية او لبنانية ـ الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش صاغ ـ في الامريكتين ٥ دولارات في سائر انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/ ٣٠ شلنا

نفرتيتي

ربة الجمال والتاج

تأليف

صوفي عبد الله

اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم د. عبد المنعم حسين الجمال

مدير مستشفى حميات الإسكندرية

دار الهلال بمصر


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الملكة نفرتيتي

مقدمة

سلاما أيها القارىء !

من الناس من حياته نفحة من نسيم ، ومنهم من حياته لفحة من نيران الجحيم . ومنهم من يمر بالدنيا كالاعصار لا يبقى ولا يذر ، ومنهم من يشيد فيها ويعمر ، ومن يجىء اليها ويمضى عنها بلا حس ولا خبر ، ومن يشرق فيها اشراقة البدر ، ومن يفعل فيها فعل الوابل الغمر ، فاذا مضى بقى من بعده ما انبت من خير وما خلف من بر ، ومنهم من لاينفع ولايضر ، ولكنه كالزهر يزهو بالحسن وينفح بالعطر

فأى من هؤلاء نفرتيتى ؟ وأى من هؤلاء هذا الكتاب الذى يتسم باسمها الذائع فى الآفاق ؟ . انها ملكة مصر فى عصرها الذهبى التليد ، وانها اسطورة الجمال المصرى العريق ، وانها صاحبة اجمل تمثال واشهر تمثال من ذلك الزمان السحيق ... فهى نور مشرق اذا نظرنا الى الملك والتاج . وهى زهرة مونقة ذات عبير اذا نظرنا الى الجمال الرائع . وهى نفحة من نسيم ندى اذا نظرنا الى الفن الرفيع

فأى كتاب هذا ؟ وما دعواه؟ . اكتاب تاريخ هو ، أم كتاب فى الفن ومذاهبه ، وعلم الجمال ومناهجه ؟ وهل هو ترجمة حياة ، أم هو صورة فترة من حياة شعب ؟ وهل هو متحف

طرائف ، أم هو نافذة تطل على خضم اجتماعى زاخر بالتيارات والمؤثرات والاحداث ؟..

انه بعض من كل ذلك ، وشىء فوق كل ذلك ، اذا صدقت دعواه ونفذ الى غاية مرماه ...

فهو صورة حياة امرأة ، ولكنها امرأة لا تستأثر أنوثتها بجوهر حياتها ومبلغ أثرها . فهى ملكة ذات جلال وجمال . وليس هذا أكبر شأنها وانما أكبر شأنها أنها امرأة « روح عظيم » من أنبل وأشرف من نهضوا بالرسالات الانسانية ، وحملوا « الأمانة » بتكليف من سرائرهم . وانها زوج ملك وزوج قديس ولد للسلطان ، فنذر نفسه للفتوح فى عالم الروح ، واستبدل بالسيف غصن الزيتون ، وجعل من الحب ناموس حياته وحياة الناس ، ضاربا بحبه زوجته نفرتيتى المثل لكل حياة كاملة للنفس التى تطلب الأمن والسلام

▭

وان الأجيال لتنطوى فى اثر الأجيال ، قبل أن يظهر فى هذه الارض المنكودة ـ أرض البشر ـ روح عظيم بعد أن يفارقها روح عظيم .. فما أكثر الناس أيها القارىء ، ولكن ما أقل العظماء حقا . وقليل من العظماء من عظمتهم مستمدة من نبع الروح القدسى والقلب الطاهر النقى

ولقد درجت الحضارة فى مصر طفلة ، ومشت يافعة ، وخطرت شابة ، فقامت على ضفاف النيل الهياكل والمحاريب ، وتوطد ركن الدولة ، وامتد سلطانها فى المشرق والمغرب والشمال والجنوب .. ولم يكن ذلك كله مددا من عالم الروح، فليس فى تاريخ مصر كله ـ قديمه وحديثه ـ « روح عظيم » يقرن الى ملكها القديس « اخناتون » !

ولم يقدر لامرأة فى تاريخ مصر كله ـ قديمه وحديثه ـ أن تعيش فى جو روحانى كالذى عاشت فيه زوجه وأخته نفرتيتى . ولم يقدر لملكة أن تعاصر صراعا أهول ولا أروع من الصراع الذى شهدته نفرتيتى رأى العين ، فى ميدان القصر الملكى ، وفى بلاط الملك ، وفى قلبه الكبير الذى هده الحزن وتغلغلت فى أطوائه المرارة والحسرات

ومضى « الروح العظيم » . ومضت زوجه نفرتيتى ... ولكن العالم بقى مشغولا بها فى هذا الزمان ، حيث شغل عن بعلها العاثر الجد . !

ولكنها سطوة الجمال ، وان كانت فى تمثال

ومن هذه السطوة التى لا تقاوم ، يستمد اسم «نفرتيتى» سنده فى تتويج صفحات هذا الكتاب الذى يتناول الملكة الفاتنة من حيث هى قطب الرحى فى معركة الروح والحق والعدل والخير ، تلك المعركة التى يعز نظيرها فى التاريخ والتى رفع لواءها زوجها : « اخناتون »

وفى تواضع الزاهدين ، وتضحية الشهداء والصديقين ، يتوارى الملك الناسك ، ليترك الصدارة للؤلؤة قلبه ، وريحانة بيته ، « نفرتيتى » .. !

ولئن اتخذ هذا الكتاب من جناح الخيال معراجا ، فليس الى غير حقائق التاريخ عروجه ، فكل ما فيه مما اثبته العلم ، أو مما يثبته العقل وان لم يرد عنه فى الخبر المتواتر ذكر ..

فهو صورة حياة امرأة ، وهو صورة حياة ملك قديس وروح عظيم ، وصورة حياة شعب ناهض قديم

مصر الجديدة

صوفى عبد الله

بين عالمين

فى محبس الزمن

قلت لصاحبى ونحن فى طريقنا فى ذلك الصباح الصائف :

ــ ما أشد ولع الانسان بالسجون والمحابس ، وان أبدى نفوره منها !

فسألنى فى هدوء لا يخلو من تهكم خفى : « وكيف كان ذلك ؟ »

فقلت : « زعموا أن الانسان ولد حرا ، وفطر على الحرية . ونراه اذا عاقب أهدر حرية من يعاقبه ــ وذلك مفهوم . ولكنه أيضا لا يستغنى عن استخدام الحبس والتقييد فى كل غرض من أغراضه ، لفائدة عقله وقلبه »

فابتسم صاحبى وقال : « وأرانى مرة أخرى أسألك : وكيف كان ذلك ؟ »

ــ زعموا أن الحب هو أوفى نعم الله على الانسان ، وقد يفوق نعمة الحرية فى القيمة ويرجحها أيما رجحان . وهذا الحب أقوى القيود التى تربط الانسان .. أفليس هــذا جمعا بين النعمة والنقمة ، وبين الحبس والمتاع ؟

ــ هو والله كذلك . !

ــ وكلمة «العقل» نفسها ، أليست مشتقة من «العقال»، وهو القيد يربط به الشىء فيقيد ويحبس عن الحركة ؟

ــ بلى ! فالتزام الحدود ، وحبس كل شىء فى حد لا يعدوه هو شرط الحياة المتزنة والتفكير السليم على السواء ...

ــ وهذا ما عنيته حين عجبت لولع الانسان بالسجون

والمحابس وان أبدى نفـــوره منها ... ورحم الله « رهين المحبسين » أبا العلاء ...

ـ ومن أحق بالغفران من صاحب «رسالة الغفران» ؟ !..
ولكن بم استحق عندك الترحم فى هذا الأوان ؟

ـ بما اقر به على نفسه حين قال :

واعجب منى كيف اخطىء دائما
على اننى من أعرف الناس بالناس !

فكأنه والله كان يشير الى زعمه أن :

امس الذى مر على قربه يعجز أهل الارض عن رده

ـ أترينهـــم لا يعجـــزون عن رد « أمس الذى مر على قربه » ؟

ـ عفوك .. ها نحن قد بلغنا غايتنا فادخل تر ...

ـ وماذا أرى ؟.. انه « المتحف المصرى » ...

ـ وهل تريد محبسا للزمن اكبر من هذا المحبس ، يرد فيه« أهل الارض » أمس البعيد ، فاذا به حاضرمشهود ؟..
اليس هذا ما غاب عن أبى العلاء ؟

فابتسم صاحبى وهو يتقدم من الباب الكبير ودخلنا مع الداخلين

جناح الذهب

وكانت وجهتنا هذه المرة ذلك القسم من الطابق العلوى ، الذى جعل للأسرة الثامنة عشرة ... أزهى عصور الفراعنة من الوجهة الأثرية ، ومن حيث الترف والنعيم ، واستقرار الحضارة وتوطد أركان الدولة على العزة ، وتمتعهـــا بثمار النصر ونعم السلام ..

وان خطوة واحدة داخل ذلك الجناح تكفى لمعرفة السر فى تسميته : « العصر الذهبى » فى تاريخ الفراعنة .. فهو

حقا عصر الذهب : كل شيء فيه فاخر ثمين ، وحلى الذهب وأقنعة المومياء من النضار الخالص ، وما من صغيرة أو كبيرة الا وهى تنم عن ثراء عريض وغنى لا حصر له ...

والناس قد درجوا ــ العامة منهم والخاصة ــ على الافتتان بالثراء ، والانبهار برنين الذهب ولمعانه الأخاذ .. فحيثما كثر الذهب وتدفق فى مجارى الترف والبذخ ، كان ذلك العصر فى وهمهم أسنى العصور ، وأولاها بالتهليل والتكبير

ولكن هل عصر الذهب هو العصر الذهبى حقا ؟ هل كثرة الذهب فيه اطلاقا دليل قاطع على الرخاء العام والنعمة السابغة الشاملة ؟

ألسنا نرى اليوم الذهب وقد كثر فى الأسواق ، فلم ييسر للناس الأرزاق ، بل ضاق الأمر حتى كاد لا يطاق ؟

فمن التزام الحق والمنطق الدقيق ، الا ننزلق مع « ذلاقة اللسان» فنقول انه «العصرالذهبى» لأنه « عصرالذهب» ... ويحسن بنا الا ننسى تجربة الانسان من أقدم الأزمان لهذا الأصفر الرنان ، فقد كان على الدوام خادما نافعا ، وسيدا ملعونا !

وربة التاج ؟

وناهيك بكنوز توت عنخ آمون ، التى كان أكثرها من قبل لأخناتون .. فنزع اسمه من فوقها ــ أو طمس ــ لينقش اسم الملك الشاب ، امعانا فى النكاية ومحو آثار الانقلاب ..

وجعلت أتأمل تلك الصور الصغيرة التى تمثل فرعون مصر وزوجه وبناتهما الصغار فى كافة المناسبات .. صور ناطقة ، تكاد روعة الوانها وخطوطها أن تنبض بالحياة ..

اى وربى ! لولا حواجز الزجاج لتلمست بيدى تلك

الصور ، فان فى العقل لشكا أن تكون أكثر من رسوم على الأحجار ...

وأخذتنى تلك الصور العائلية ، وما فيها من نفح الحب والرحمة والحنان .. فأذكرتنى سائق عربة الجر الذى نراه اليوم يضع ولده الذى لا يجاوز طوله الشبر على ركبتيه ويأبى الا أن يمسك فتاه عنان الحصان !

ولكن طغى على هذا الشعور شعور بالغبطة لتلك المرأة ، زوج فرعون .. فهى أول ملكة تلزم زوجها الفرعون فى جميع الطقوس والمشاهد والرسوم . وليس لذلك أصل عميق فى الطبيعة الشعبية عند المصريين ، الى يومنا هذا .. ودون أن أدرى ألفيت نفسى أهتف فى اعجاب وحسد :

ـ ايه « نفرتيتى ! » لقد أوتيت ما لم يتهيأ لأحد من قبلك ولا من بعدك !

ثم سألت مرافقنا العالم الأثرى ، حين لم أجد مومياءها بين تلك المخلفات العظام :

ـ ولكن أين ربة التاج ؟ أين شمس ذلك السلطان ؟

فقال الرجل : « من يدرى ؟.. لم يعثر لجثتها على اثر ، كما لم يعثر لزوجها على قبر »

وتلفت الفى على كل تلك التحف نظرة أخرى ، وقد انقلبت غبطتى لصاحبتها رثاء واشفاقا ..

□

وكأنما أدرك الرجل بعض ما فى نفسى ، فاستطرد يقول :

ـ لقد لازمنا سوء الحظ حقا فى شأن نفرتيتى ، فاذا كان فقدان مقبرتها امرا يعلل بفعل الزمن ، فبماذا نعلل ضياع تمثالها من أيدينا ، ليزدان به متحف برلين ؟ !

ـ لا أدرى بماذا نعلله ، ولكن لا بد له من علة على كل حال ..

ـ طبعا .. ولكنها علة لا تسر ، ويكتنفها الخزى من أكثر من جانب واحد . فقد كشف ذلك التمثال البديع عالم أثرى ألمانى . والرجل يعلم أن قانون الآثار المصرى يحتم احتفاظ متحف القاهرة بالقطع التى لا نظير لها ، وما له نظير يقسم مناصفة . وهو يعلم أيضا أن التحفة التى عثر عليها لا نظير لها فى كمـــال الفن ، ودقة الصنــاعة ، وأهميــة الدلالة التاريخية . فهى أكمل وأجمل تمثال من ذلك العصر ، عصر الذهب والترف . فسولت له نفسه أن يغطى التمثــال الجميل الرائع التلوين بمادة عازلة من القصدير ـ كذلك الذى تغطى به قطع الشكولاتة ـ ثم يجعل حوله الجص من كل جانب ، بحيث يبدو شيئا منفــرا لا معنى له ولا لون ولا طعم ... فجازت الحيلة ، وخرجت التحفــة الفريدة من الديار ، فتخطت البحار الى برلين وهناك جلوها للناظرين من غشاوتها المموهة ، وابتنوا لها ـ اعتزازا بهــا ـ بهوا خاصا على الطراز الفرعونى

وهكذا حظيت برلين بذلك الذخر الثمين ، وخلت مقاصير متحفنا من ربة ذلك الملك الباذخ جسما وتمثالا ..

الروح الحائر ..

وانتصف النهار .. وآن لى أن أرحل عن المتحف ، وأن أبرح «جناح الذهب» فيه ، ولا زالت مأساة نفرتيتى تداعب وجدانى وتأخذ على أسباب الهدوء . فكل هذا النعيم كان ملك يديها ، وقلب زوجها كذلك كان حانيا عليها صــادق الحب لها ، وتلك نعمة أندر من الملك والجاه العريض ، فطالما عز القلب الخالص الود على ذوى التيجان والعــروش . أما هى فكان لها هذا وذاك جميعا . فكيف غربت تلكم الشمس ،

وكيف انتهت الى المنفى والتشريد جسما ومثالا ؟

وأغمضت عينى للنوم حين بلغت مقامى ممتلئة النفس بما شهدت ، وبما استثارته المشاهدة فى نفسى من ذلك القدر الذى رصد لربة التاجين ، صاحبة الجمال والجلال « نفرتيتى » .. حتى لقد تمنيت اننى رأيتها رأى العين ، وصحبتها صحبة ألفة وارتفاع كلفة ، كى أعرف الحياة كما كانت في « عصر الذهب » ، وأنفذ من وراء هالة الزمان السحرية الى قلب الانسان النابض فى كل زمان بالآمال والافراح والاشجان ...

وشاقنى أكثر من هذا ، وأنا أتهيأ للنعاس بعد وجبة عجلى ، أن أعرف حال الأمة فى ذلك الزمن الفريد ، الذى رفع لواء الثورة فيه رب الحكم وولى الدنيا والدين ، فخذله من انتصر لهم ، وعفت آثاره ، وعفت آثار زوجه نفرتيتى معه ، وصار الى ذمة التاريخ ذلك البصيص الفذ الذى أومض ثم خبا وشيكا وقد اجتمعت عليه أهوية الاهواء من كل حدب وصوب ...

وقلت فى نفسى ما قال أبو العلاء :

كم وعظ الواعظون منا	وجاءت الأرض انبياء
وذهبوا ، والبلاء باق	ولم يزل داؤها العياء
حكم جرى للمليك فينا	ونحن فى الاصل أغبياء !

ثم غفوت .. ولا أدرى كم من الزمن غفوت ، فاذا الباب يفتح فى غير صوت ، ثم يدخل على شبح ملتحف بالصمت ، تحوطه المهابة وهيبة السمت ، لم أتبينه بادىء الأمر فى عتمة المخدع ، حتى اقترب منى فصار على قيد خطوات أربع فاذا رأس ولاساق ، تمشى فى الهواء أو هى تسبح فيه وئيدا

وكدت أصيح مستنجدة ، فاذا الرأس يكتمل له عنق

طويل ، وصـــدر نحيل ، وبطن متهدل ، ثم ســـاقان فيهما نعلان ، وعلى تلك المرأة غلالة من نســيج رقيق تشى بأكثر مما تخفى •• وفوق رأسها ذلك التـــاج المستطيل ، وفى نظرتها ذلك السحر الجميل •••

وقبل أن أفتح فمى لأهتف مأخوذة بما أرى :

ــ هذه نفرتيتى وايم الحق !••

كانت الملكة قد سبقتنى الى الكلام ، مرددة شطر البيت الأخير مما تمثلت به : « ونحن فى الأصل أغبياء » •••

فحملقت فيها لا أدرى ما أقول ، فاستأنفت كلامها فى تأنيب كالتدليل :

ــ أجل أغبيـــاء ! فقد كنا أغبيـــاء حين حسبنا الارواح لا تعيش الا فى الاجسام ، وفى أجسامها التى سكنتها فى حال الدنيا على وجه الالزام ••• وهاأنذى أبعث من جديد لأظهرك على فساد ذلك الرأى •••

وأحسبنى كنت أتفحصها مبهورة بشكل ظاهر، فابتسمت وسألتنى : « هل أعجبك شكلى ؟ »

وسكتت لحظة ، واستطردت : « لا أظن ! بل أكبر ظنى انك شعرت بخيبة كبرى •• فان الذين فتنهم تمثال رأسى وعنقى يخيب أملهم اذا رأوا ما فى سائر جسمى من اضطراب فى الهندسة وتنافر فى التكوين •• »

ــ عفوك مولاتى ، ولكن •••

ــ لا لكن هنـــاك ! تلك هى الحقيـــقة ، ولا أكتمك اننى ما كنت أجهر بها الآن الا وقد فارقنا عالم القشور والغرور وتخلصنا من ذلك الجسد بما فيـــه من قبيح ومليح •• أما ونحن فى الدنيا ، فقد سرنى أن يصنع الصانع تمثالى خاليا من ذلك العيب الظاهر •• أم تراك تصدقين طرفة عين أن يكون جسمى جميلا ممشوقا ثم أتردد فى تخليده للناظرين؟

اننى ملكة النيل ، وسيدة الخافقين ، ولكننى امرأة أولا ••• ولا تزهد امرأة الا فيما لا زهو فيه ••

وابتسمت لهذه الشهادة الخالصة ، التى يعزى الفضل فيها الى زوال الغرض وانتفاء الخسارة ، بعد ختام الحساب وانقضاء اللبانة •• وبدا على شيء من الدهش والتساؤل ، فسألتنى أن أفصح عما أضمر ، فقلت وأنا أغالب الحرج : « انه لشرف عظيم يا مولاتى ••• »

فقاطعتنى ، وقد فهمت بقية المقال :

ـ ولكنك تعجبين كيف علمت أنك تشتهين لقائى ؟•••

ـ هو ذاك يا مولاتى •••

ـ لقد اشتقت لقائى ، وكان شوقك صادقا ، فلمس روحى••فجئت اليك خفيفة على جناح من الشوق المستطار

ـ ولكن يا مولاتى ، ذلك يبين لى كيف جئت ، وليس على الارواح عزيز ، بيد أنه لا يظهر لى كيف علمت ما فى نفسى من شوق شديد •••

ـ وهل ذلك أصعب من المثول من عالم الى عالم ، والشخوص من دنيا الارواح الى دنيا الاشباح ؟ أما سمعت يا بنية بالمذياع ؟ بل انى أراه الى جوار فراشك •••

ـ أجل • هذا مذياعى ••• ولكن ••

ـ ولكن ماذا ؟•• انك تستخدمينه ولا تعجبين من انتقال الصوت آلاف الاميال ، ومن انفعال الحديد الأصم بموجات الأثير ••• فكيف تعجبين بعد هذا لما هو أقرب الى البداهة السديدة ، من انفعال روح بروح وان بعد المدى فى زمان أو مكان ؟••

ـ عفوك يا جدتاه !•• انما نحن أطفال الحياة ، ومهما بلغت حدة عقولنا ، لم نتخلص من رق العادة • فنحن لا نستغرب المألوف وان بدا فى ضوء العقل عجيبا، ونستغرب

ما لا غرابة فيه اذا لم يكن مألوفا ...

ـ لا عليك !.. فقد كنا مثلكم فى ذلك الرق . ولم نكن خيرا منكم ، أبناء هذا الزمان

وتنهدت وسكت ، كأنى أكتم حسرة شديدة ، فقالت :

ـ فيم هذا ؟ ألم تريدى لقائى ، وهأنذى ؟..

ـ مولاتى ! لقد صنعت لى ما لا طاقة لى بشكره . ولكنى اشتهيت أنأعيش فى زمنك ، لا أن تعيشى أنت فى زمنى..

ـ وبعد ؟ ما الذى يحزنك اذن ؟

ـ اننى لا أنال ما أشتهى ، وان كنت شاكرة لما نلت...

ـ ومن قال لك يا بنية أنك لا تنالين ما تشتهين ؟..

ـ وكيف لى به ؟ أنى لى أن أعيش فى زمنك يا مولاتى ، ودون ذلك سجن منيع من الزمن ، ان قرونا طوالا تفصلنا ... فأين أين الفرار من ذلك الاسار ، ليتسنى لى أنأعيش فى عصرك وأجلو الغامض من سرك ؟ ..

هو على هين

فابتسمت الملكة ، وبدا جلال الملك شيئا ضئيلا الى جانب ما يضفيه العلم النافذ الى ما وراء الاستار من هيبة طاغية ، ثم قالت :

ـ لا عليك ! هو على هين ...

ـ أعلم هذا ! فأين آماد الزمان وأبعاد المكان من الأرواح التى تخطت ذلك العالم الفانى ؟ .. ولكنه على أنا الفانية ليس هينا ، بل هو على التحقيق ليس ممكنا

فابتسمتابتسامة عريضة ، كما يضحك الشيخ منطفل غرير ، وقالت :

ـ عـــلى التحقيق ؟.. وما تدرين أنت ، بل ما تدرون

أجمعين من أمور الوجـود على التحقيق ؟ دعى عنك هــذه الخزعبلات .. وتعالى ألمس جبينك بيدى هذه ...

ووضعت يدها فوق جبينى ، ثم قالت لى : انظرى فى المرآة ، فنظرت ، فلم أر صورتى ، وان رأيت صـورة كل ما فى الحجرة ، عداها وعـداى .. فقالت وقد أضحكتها دهشتى :

ـ أنت الآن ترين وتسمعين ، ولا يراك أحد ولا يسمعك .. وعلى جناح الأثير ستطيرين معى الى عصرأبى ، وعصرى، ثم تعودين قبل انبلاج الصبح فى دنيا العالمين ...

وانطلقنا ...



والد وما ولد

نسب مغموز

وفى أقل من لمح البرق الخاطف ، كنت واياها فى مكان منعزل على شاطىء النيل ·· وليس من حولنا ديار ولا نافخ نار · ولكنى استشعرت أنسا ، ولم تخالجنى الرهبـة ولم تخطر لى ببال · فنظرت حولى أتملى من جمال المكان ، وقد خيل الى أنى رأيته من قبل ··

ووضعت يدها على يدى ، ثم قالت لى :

ــ نحن على أبواب طيبة ، وقبل أن نهبطها ينبغى أنأقدم لك نفسى ··

ــ عفوا ملكة النيل !·· ومن ذا يجهل نفرتيتى ؟··

ــ بل قولى : من ذا يعرفها ؟·فليس أقرب وألصق بالمرء من نفسه ، وبرغم ذلك فانه يسلخ العمر الطويل ثم تبدر منه البادرة فاذا هو يستغربها وكأنه لم يكن يعرف نفسه على هذا الغرار من قبل···فكيف وقد عبر الزمن،وصارت الدولة غير الدولة ، والاوضاع غير الاوضاع ؟··

ــ ذلك حق ، ولست أدرى كيف نسيته

ــ أنا بنت الأكرمين : أبى أمنحتب الثالث ، وأمى الملكة تى ·· وكلاهما ذو مكان رفيع فىتاريخ هذا الوادى العظيم

ــ وهذا شأن لا يجهله أحد يا بنت آمنحتب ، أو يا بنت امينوفيس ، على رواية فريق من أصحاب التاريخ القديم··

ــ ولكن هذا ليس هو الحق كل الحق ··· فمن أمنحتب الثالث ؟

ــ هو ابن تحتمس الرابع حفيد تحتمس الثـــالث بطل

مجدو ، وفاتح فلسطين ، وقاهر الشرق ، وصاحب الحرب الخاطفة ، صاعقة الحروب الذى لا يسق له غبار ..

فطامنت نفرتيتى من رأسها الدقيق فى اكبار ، وقالت :

ـ كذلك كان تحتمس الرابع ، وأكرم به من جد مجيد ، لو أنه كان جدى حقا وصدقا !..

ـ وى !

ـ وفيم العجب ؟! ان أبى ينسب الى تحتمس فى رواية تسجلها الآثار والجدران ، برسوم ناطقة بأجلى بيان، ولكنها اسطورة ابتدعها الكهان ، ليوطئوا العرش لأبى من بعد وفاة تحتمس الرابع فى ميعة الصبا ، غير مجاوز ستا وعشرين سنة !

ابن الاله !

فارتسم على وجهى مصداق ما فى نفسى من العجب ، وقلت :

ـ ان هذا والله لحديث خطير ، اذا جاز لى أن أستعمل لغة الصحافة فى هذا الزمان !. فكيف يقحم على العرش ـ وأى عرش ؟! عرش الفراعنة سلالة الآلهة ، أوطد العروش فى العالم القديم ـ رجل ليس من نسل الملك ، وينسب الى ولد الملك ، والعهد بالقصر الملكى فى ذلك الزمان ان حركاته تحصى وترصد ، وان أبناء فرعون ليسوا هملا يجهلون ، حتى يبرز الى الوجود دعى ليس منهم فيصدقه الناس ..؟

فابتسمت نفرتيتى ابتسامة الاشفاق ، ثم قالت :

ـ أجل ، فرعون صاحب أوطد العروش ، ونسل الآلهة الميامين . ولأنه نسل الآلهة الميامين ، وخليفتهم على الوادى المبارك ، جاز لوالدى أن يرتقى ذلك المرتقى العجيب

فقلت وأنا بين الانكار والتصديق :

ـ انها الجهالة العمياء والغي •• فقد صارت لآمون بعد طرد الهكسوس دولة تطاول الدولة ، وأغدق على كهنته الهبات والاموال ولاسيما بعد اتساع رقعة الملك ، حتى صار لهم سلطان المال الى جانب سلطان الدين ، واكتملت لهم أدوات السيطرة جميعا ، فطغوا وبغوا ، وطمحوا الى السلطان السافر •• وتبعهم العامة ايمانا بالشعوذة ، وتبعهم غيرهم من كبار القوم ابتغاء المنفعة ، بعد أن صارت لهم خير الضياع والاموال في مصر والشرق كافة ••• وليس سلطان المال الطائل بالشيء الذي يحتاج الى بيان في زمان ـ كزمانكم ـ مست فيه الفلسفة الاجتماعية كل جيب ، وكل معدة •••

ـ اى والله •• ان هذا لحق ••!

ـ فهل كان هذا حريا أن يرضى فتى غض الاهاب ، قوى الاصلاب ، كتحتمس الثالث ؟ لا وحق مجدو وقادش ويافا والفتوح الغر في الشام والفراتين ! ••فنام هؤلاء الكهان عن الفتنة حتى ذهب تحتمس الثالث ، وذهب من بعده ابنه امنحتب الثانى (أو أمينوفيس الثانى) الذى كان سر أبيه فتوة ، وقوة ، ومضاء ، وجاء من بعدهما تحتمس الرابع الشاب الألمعي المتوثب الى العزة •• وقد أشرب كراهة كهان آمون ، وما فيهم من نزعات دنيوية تخرج بهم وبالدين عن نصابه الحق •• فمال الى الدين العريق ، دين منف ، أو مدينة الشمس •• أقرب الاديان القديمة الى التجريد وأبعدها عن الدنيويات والتجسيم والوثنية وخزعبلاتها ••• فاجتمع في مسلك تحتمس الرابع دافعان متباعدان : هما الغيرة على السلطان ، وكراهية الطغيان من جانب كهان آمون الذين يعمدون الى الدجل والادعاء مع الغوغاء ، ويلوحون بالارزاق لمن لا يجدى معه الدجل والادعاء ••• بيد أن الفتى كان أطرى عودا من الصمود لذلك الاعصار الجائح أو الاخطبوط المنتشر في كل مكان •• ولم يلبث

الموت أن عاجله في السادسة والعشرين من عمره • فانتهز كهان آمون الفرصة ليقضوا على تلك الشجرة المعادية من الفراعنة ••ولاسيما وبنو الملك الراحل صغار السن لا حول لهم ولا طول

ـ ولماذا لم يرتق العرش كبير الكهان ؟ أزهدا فيه أم سياسة ؟

ـ بل سياسة••فان الناس على كل حال لا يقرون بالملك الا لوارث شرعي •• فلماذا لا يصنع الكهان وارثا شرعيا؟• وقد كان ! فصنعوا من أبي وارثا شرعيا ••• جاءوا به ، وكان من أبناء الاسرة في فروعها البعيدة عن حق وراثة العرش ، كما يأتي المستعمرون في الزمن الحاضر بأمير كان لايحلم بالملك فيولونه لكي يدين لهم بالفضل ما عاش •••

ـ ما أصدق من قال : « لا جديد تحت الشمس ! »

ـ لا جديد مطلقا •• وفي السياسة على وجه الخصوص• ولكن كيف يولونه الملك وهو ليس من أبناء الملك ، وللملك ولد ؟•• لا سبيل الى ذلك الا أن ينسبوه اليه • ولكن أنى لهم هذا وأولاد الملك معروفون ، سواء أنجبهم من الزوجات أو من الحظايا ؟ لا مفر اذن من الاستعانة بالاله نفسه لحل ذلك الاشكال •• ففي زماننا أيضا كان الآلهة « ممسحة » لأهواء البشر وأخطائهم • فأذاعوا أن أم أبي قد حملت به من الاله آمون ، الذي ظهر لها في صورة تحتمس الرابع ، فاقترب منها ومسها كما يمس الرجال النساء ، وحملها تلك النطفة المقدسة ، ايذانا بحقها في عرش مصر بفعل مباشر من الاله ، صاحب الوادي الأصيل •• وتلك الرواية مرسومة بجميع تفاصيلها على آثار الوالد

ـ وكيف صدق الناس ؟

ـ لقد صدقوا ، لأن الجهـل أعمى ، أو لأن التواطؤ مع كهنة آمون كان أنفع وأجدى عنـد طلاب المنفعة .. وهكذا صار أبي ابن تحتمس الرابع بأمرالهي دون أن تكون لتحتمس الرابع يد فى ذلك الانجـاب ، فهو لم يكن يكبر أبي بكثير من الاعوام .. وهكذا يرتفع صاحب النسب المغموز فيصبح ابن الاله !

بقية التدبير

فقلت مأخوذة بما سمعت :

ـ لقد كانت العادة المتبعة أن يتزوج الملك الجديد ابنـة سلفه ، ولو كانت أخته ...

ـ كذلك كان .. فان للمرأة فى دولة الفراعنة حق الميراث مثل الولد ، وقبل الولد فى بعض الاحيان ... مثل وراثة الارض والعقار والبيوت المأهولة ، كى يضطر أبناء البيت الى الزواج من بنـاته ليحتفظوا بتراث الآباء ، وبذلك يبقى الدم غير مشوب ، ويظل رباط الأسرة وثيقا ، وتظل للبنات المكانة والكرامة من بعد أن يتزوجن ، بما حملن الى بيت الزوجية من مال ...

ـ ذلك ما علمته يا مولاتى عن عهدكم الزاهر ، ولا زالت أسرنا فى الريف والصعيد تؤثر زواج أبناء العمومة ، بعد أن حرم الدين زواج الأشقاء

ـ وكان الملك الجديد يرث القصر بحـريمه من السرارى والزوجات . ولكن أبى لم يتزوج بنتا من بنات الملك ، ولم يبن بأرملة من أرامله ...

ـ أتقولين أرامله ، بصـيغة الجمع ؟ فهل كان التعـدد مباحا ....؟

ـ للملوك وخاصة الخاصة من الناس .. أما سواد الشعب فكان مقيما على الزواج بواحدة ... وكذلك كثير من العلية

ـ ولماذا لم يتزوج الملك واحدة من هاتيك ؟ أم كان الأمر اختيارا لا الزام فيه ؟

ـ بل هو فى حكم الملزم .. فليست فى العالم القديم كله حياة مقيدة بالمراسم والتقاليد والاصول المرعية كحياة فرعون مصر . لا فرق فى ذلك بين حياته الخاصة وحياته العامة ، لأن فرعون كل لا يتجزأ و « كينونة » عامة تملكها واجباتها ملكا خالصا ، ولا مناص من ذلك ... والى هذا يعزى السبب فى احتياج الكهان الى أسطورة لتبرير ارتقاء أبى عرش الفراعنة

ـ هى الثورة اذن ... أم هو الحب والغرام ؟

ـ بل هى بقية التدبير ، التفت بهوى قلب شاب ...

ـ وكيف كان ذلك ؟..

ـ كان مراد الكهنة اقصاء بيت تحتمس الرئيسى عن العرش ، فأقصوا البنين ، وكان اقصاء البنات هو تمام التدبير ...

ـ ولكن كيف يتم ذلك ، فاكبر الظن أنه يحتاج الى تدخل جديد من آمون ؟!.

ـ لا عليك !.. فان الذى يتدخل « آمون » لانجابه من صلبه يحق له أن يواجه شعبه بما يشاء فى أمر نسله وصهره.... وكان أبى ـ وهو أمير ـ دائم الاتصال بكهان من سدنة آمون ، لأنه كان متيما بابنة أحدهم « يوا » ـ ولم يكن من كبارهم ـ وكانت زوجته « تيو » وصيفة من وصيفات القصر . فلم يكن اختيار أبى اعتباطا ، بل لتدلهه بابنة الكاهن ، وصلته بالكهنة صلة تحمل على الاعتقاد فى طواعيته لهم .. فما استدار العام حتى تم التدبير المقدر ، وتزوج أبى من الملكة « تى » ، فرفع مقامها فوق كل مقام ، وجعلها الملكة الرسمية وصاحبة الصدارة والشورى فى كل

أمر • وجعل والدها على رأس رجال حاشيته ، ورفع أمها الى مقام الأميرات ، فصارت من «الحريم الملكى» •• لا بمعنى أنها زوجة ، بل بمعنى انها من النساء أعضاء بيت فرعون المباشر ، مثل الأم والأخت وما الى ذلك •••

ـ مرحى ! ان فى عروقك اذن دماء الكهان من سـدنة آمون ؟ ..

ـ ما فى ذلك شك ! بل انه أثبت من نسـبة دمى الى تحتمس •• ولم يكن زواج أبى شـيئا عاديا ، فما هكذا يتزوج أبناء الآلهة ! بل جعل من ذلك حادثا قوميا، يسجل فى الآثار وتقام له نصب التذكار !

تركة حافلة

فقلت :

ـ لا أدرى يا مولاتى أيهما أروع : مكانك فى التاريخ ، وفى ثبت الجميـلات الخالدات ، أم جرأتك فى الحق ، على نفسك ، وعلى آبائك الميامين ؟ ..

فزمت شفتيها فى هـدوء الخالدين ، الذين ودعوا هوى الدنيا ، وأجابت .

ـ لا يغرنك منى مثل هـذا يا بنية •• انما هى حكمة لا فضل لنا فيها ، لانها لم تظهر الا بعد فوات أوان الاهواء، وانقطاع اللبانات ••• ولا فضـيلة الا حيثما تكون مغالبة هوى وصراع شهوة !••

ـ وهل أفهم مما قالت مولاتى عن والدها امنحتب الثالث ووالدتها ، ان العصر كان عصر انحلال ودولة تنحـدر الى الزوال ؟••

ـ أجل ، تفهمين ذلك ، وتفهمين عن حق •••

ـ ولكن الدول يا مولاتى لا تدول بين عشية وضحاها • ولم يكن مرتقى والدك العرش الا كالغد القريب بالنسبة

لعهد الملك تحتمس الثالث .. صاحب قادش ، ومجدو ، ووادى عرة ، وصاحب الملك الذى لم يهيأ لأحد من قبله فى الخافقين .. فكيف انتقل الحال الى نقيضه فى طرفة عين ؟

ـ هذا من ذاك !..

ـ لم أفهم ...

ـ بل ستفهمين عن يقين .. أتعرفين ترهل الشيخوخة المترفة بعد الشباب الكادح ؟ .. اتعرفين نابليون « سنت هيلانة » بعد نابليون «اوسترلتز » و « ينا » ؟ بل أتعرفين قوله عز من قائل : «واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » ؟ وهل تعرفين مذهب فيلسوفكم الاجتماعى الحصيف ابن خلدون ، عن مراحل الدول وأطوارها من البداوة الى الحضارة والرخاوة ؟

ـ أعرفها مولاتى ولا أنساها ...

ـ لقد عرفت اذن كيف سرى الانحلال الى هذا البنيان المشيد ، ونخر السوس فى قوائم ذلك المجد الوطيد ... فقد جنى خلفاء تحتمس الثالث ثمار نصره وجهده يانعا جنيا ، وأغناهم بأسه السابق عن جهاد لاحق ، فاذا طاعة شاملة ، وسلم دائم ، وذهب يتدفق ، ونعيم مقيم... فأثرى التجار ، وتضاعفت الاموال ، واستنام الناس للترف ، كما يستنيم الشيخ أو الكهل للثروة الهابطة ، فيأكل حتى يتخم ، ويشرب حتى يثمل ، ويكون همه فى اللذة الصارخة ... فهل بعد ذلك تهون عليه تضحية فى سبيل قيمة خلقية ، أو تغلبه النخوة فى سبيل حق مهدر ، وهل يكون فى مثل ذلك المجتمع مكان لرعاية الصالح العام قبل المنفعة الخاصة ؟

ـ كلا وربى ...

ـ صدقت ! وهكذا تنحل الدول ، ويصبح للأبهة المحل الأول ، وتكثر المفاسد ، ويباع كل شىء باللذة العاجلة ،

حتى الذمم ، وحتى رجولة الرجال ، ويكون التفاخر بالبذخ والمظاهر هو قانون الجماعة ...

ـ بئس هذا ...

ـ أجل ... فهذا هو أس الفساد

ـ هو فساد الأمة اذن ، لا فساد الحاكمين ؟..

ـ ومتى انفصل هذان ، الا فى ذهن كليل وعقل هزيل؟. الحاكمون خليقة المحكومين ، وصنع أيديهم ، وصدق القائل الكريم « كما تكونوا يول عليكم » ...

ـ أبوك امنحتب الثالث اذن مظلوم ... فقد تلقى هذه التركة عن تحتمس العظيم ...

ـ أجل ، تلقاها وتلقتها مصر، سما قاتلا يكمن فى أكاليل النصر ! وكذلك كل نصر .. ففى المزيد من النفع ضرر ، لأن العالم كله شىء واحد ، وليس فى استئثار عضو من الجسم بمعظم الدم خير له ولا للجسم كله ، وان توهم أنه الظافر المجدود حمقا منه وغفلة ... ولكن الانسان ظلوم جهول !

أعقاب البيوت

فتمهلت قليلا ، ثم عقبت على كلام الملكة نفرتيتى فى استحياء :

ـ مولاتى .. فى النفس خاطر عن لى ...

ـ هاتيه ولا تكتمى ...

ـ انها ظاهرة مشاهدة فى هذا الزمان ، وأحسبها قديمة قدم المجتمعات كافة ، أن تكون أعقاب البيوت دون بواكيرها فى البأس والفتوة .. فالأوائل يبنون ويشيدون ، ثم تأتى الأعقاب فلا تجد زيادة لمستزيد ، فتستنيم الى ما يفىء عليهم عمل الجدود ...

ــ هو ذلك ٠٠ ولكن نزيد عليه شيئا ، أنتم أهل هــذا الزمان فى مصر والشرق أولى أن تلحظوه ، وتولوه العناية كل العناية ، وهو وبال الاســتعمار والفتح على المستعمر والفاتح وان طال المدى : انظرى أين دالت دولة روما القديمة، وكيف تطرق اليها الفســاد باتساع الملك وكثرة الفىء ! وانظرى دولة الأكاسرة ، ثم دولة العرب ٠٠ واعلمى واثقة أن هذا الداء بعينه هو الذى سيقوض كل مستعمر غاصب فى هذا العصر ٠٠ ولكن الانسان عجول بقدر ما هو جهول !٠٠

ــ صدقت مولاتى ٠٠٠

ــ فاذا كنت مستعدة لاستخلاص العبرة النزيهة الصادقة على هدى وبينة ، ولست ممن يتساقون وراء الالفاظ الضخمة والاهواء العمياء ، فاعلمى أن كل مجد يقوم على الفتح والغلبة ينتهى بانهيار الفاتح الغالب ، بما يدخل فى نفسه من الغرور وما يستنيم به الى التنعم والترفه ، فلا يكون همه أن يعطى الدنيا من نفسه، بل أن يجبيها لنفسه ٠٠٠ وتلك هى الآفة الكبرى ، التى لا تكاد تكون آفة سواها للدول والافراد على السواء : فمن نظر الى الدنيا على أنها لهو ساعة ومتاع حين، يأخذ منها ولا يبذل لها ، كان حريا أن يكون وجــوده عالة على ركب الحيــاة ، تخسر بوجوده لانه مستهلك مستنفد ، ولا تخسر بموته لانه لم يكن عاملا فاعلا فيها بالخير والنماء ٠٠ فأى ما كان هذا الشخص من الأبهة والمكان ، فمثله فى الدنيا كمثل البرغوث، ولو حلى بالذهب واكتسى الارجوان٠٠

ــ مولاتى ! ما أحفل التــاريخ بالبراغيث تحت أكاليل الغار ونصب التذكار !٠٠

ــ بل ما أكثرهم فى البيوت والطرقات ٠٠ فمن ذا الذى يعيش لما يفعل للناس لا بما يسلبهم اياه ؟٠٠ أف لنا معشر البشر !

وكأنما أدركت الملكة أنها اندفعت فى الحملة شيئا ما ،

فأحبت أن تخفف على وقع الأمر ، فاستطردت فى صد
خفيض كالمعتذرة :

ــ لا عليكم أهل الدنيا ••• فداؤنا داء عياء ، ونحن
قال حكيمكم « فى الأصل أغبياء » • كذلك أنا يا بني
وكذلك تكونون ، فما أقل ما يتعلم الناس من أطوار الت
وتجارب الايام ••• فلا تحسبى أنا كنا خيرا منكم ،
كنت أتمنى أن تكونوا خيرا منا بعد كل هذه الاجيال •

فابتسمت وقلت كالمازحة :

ــ وهل نسيت أننا أعقاب السلالة يا ذات الجلالة ؟

فابتسمت الملكة ابتسـامة جذابة ، وقالت وهى
أذنى :

ــ ويحك ! وهل نسيت يابنية اننا نؤمن بالبعث و
الحياة •• فلماذا لا تتجددون ، ولماذا لا تبعث البـلا
أيديكم أعز نفرا ، وأوفر حكمة ، فتكون نعمة على الدن
وبركة ، وتسهم فى رخاء البشرية وارتقائها ؟

ــ آمين •••

ــ لقد ورث أبى التركة ، فمضى فى التيـار •••
بلغت الامور غايتها ، ولـكن بعد عهـده ، فكان هو
« استدان » من حساب المجد وصلاح الأمور والعدل و
ولكنه لم يقم بالسداد ، ولم يطالب به فى حياته •••

ــ كذلك نحن فى هذه الأزمان الاخيرة ، بل وفى جـ
الازمان ، الآباء ياكلون الحصرم ، والابناء يضرسون

تبعات الملك

الواجب الأول

وشردت الملكة ببصرها شيئا ما ، ثم عادت تقول :

ـ ولكن لا تظنى يا بنية ان الملك فى عالمنا القديم ، فى هذا الوادى الكريم ، كان لهوا وزهوا ، وحكما هو التحكم، والتماس المغنم ... كلا ! وانما هى تبعات جسام ، وعبء من عرفه لم يغبط عليه حامله ولو كان فى مقام الآلهة المعبودة ...

ـ ولكن يا مولاتى ، ليست كل التبعات سواء عند الانسان الواحد ، وهى ليست فى مجموعها سواء عند الاجيال من الناس ..

ـ الا تبعات فرعون مصر !.. فقد حددت تحديدا دقيقا، يعرف أولها من آخرها . فأولها على الاطلاق هو واجب فرعون نحو أصحاب الوادى الأصلاء ، الذين يحكم هو باسمهم وبالوكالة عنهم ، وهم آلهة وادى النيل

ـ لكأنى بفرعون أول من حكم بالحق الالهى المقدس ؟..

ـ ولا مراء ! فقد كان الأمر كله من قبل دينا ، وكان كله للآلهة .. فالآلهة فى العالم القديم كانت مصدر السلطات، أما اليوم فمصدر السلطات جميعها هى الأمة ...

ـ مولاتى !.. أحسرة على هذا المآل ؟

ـ لا وربى !.. وانما هى الحسرة على حالنا القديم ، فقد كنا ملوكا مرهقين بالمسئولية ، لأن المسئولية دائما على قدر الحق والسلطة . أما اليوم ، فما أهون العبء ، وقد صار الناس هم الملوك المسئولون عن ولاية أمرهم ، وولاة أمرهم

ـ ولكن مولاتى ، أى شىء يســتطيع فرعون أن يؤديه للآلهة ، وما مظهر أدائه حقهم ؟..

ـ انظرى حولك على ضفتى هذا النيل ، ترى الهياكل والمحاريب ، وبيوت الأرباب والربات .. تلك هى تحية ملوك مصر القديمة لآلهة مصر القديمة ... فكل فرعون يقدم ـ على قدر وفائه وتقواه ـ من تلك الصروح ما استطاع، وعليه فوق هذا أن يتعهد بناء السلف بالترميم والاصلاح والتعمير ، حتى تظل بيوت الآلهة قائمة مزدهرة موسعا عليها فى الارزاق ، بما يوقف عليها من الاموال والضياع والهبات

ذو الدارين

فقلت للملكة :

ـ ان لأبيك امنحتب الثالث ، فى ذلك ، باعا طويلا ، فهو من أبر الفراعنة بالأرباب ...

ـ هذا صحيح ، ولاسيما آمون ...

فقلت كالمازحة :

ـ ولكن هل نعد بره بالاله آمون تقوى وتدينا ، أم برا ومحاباة عائلية ؟ أليس قد زعم للناس انه ابن آمون ،تراءى لأمه وأودعه أحشاءها فى صورة البشر ؟..

فابتسمت الملكة وقالت :

ـ هما الأمران معا ، فهى تقوى ، وهى بر بنوى ... ويرجح هذا الظن ، أنه تخير تحية آمون على اعتبار أن الولد سر أبيه ، فتخيل أن ما يطيب له سيطيب لأبيه ...

وزادت ابتسامة الملكة الحسناء وهى تستطرد بعد لحظة :

ـ وكان أبى مولعا بالنساء ولعا شديدا ... فغير عجيب على هذا القياس أن يهتم بسعادة أبيه والاهه آمون من هذه الزاوية بالذات

فأخذتني الدهشة ، وقلت في لهجة الانكار :

ـ ما تقولين يا مولاتي ؟ ان الاسطورة تنسب حمل والد أبيك الى فعل آمون ، فهل ترى والدك العظيم كان يقدم ا آمون « ضرات » لأمه من بنات الناس ؟ انها لخدعة أخر باطنها سر رهيب ··· هو متاع فرعون بالنيابة عن آمو بهاتيك النساء ···

فضحكت نفرتيتي ، وقالت وهي تقرص خدي :

ـ وهل كان أبي بحاجة الى هذه الخرافة أو الاسطور ليمتع نفسه بما يشاء من النساء ؟ كلا !·· فالمتاع بالنس لا يحتاج الى هذا العناء الذي اضطر اليه في سبيل ارتق العرش

ـ ماذا اذن كان يفعل لأبيه أو الاهه ؟

ـ شيئا يسيرا جدا لو تعلمين ·· فهو قد تصور أن أه ما يشغل والده هو عرائسه ، قياسا على نفسه ، فبنى ا ديار الاعراس ، ومنازه الحريم · ولاسيما لزوجته الكبر المعبودة « موت » ، التي تضارع مكانتها في حريم آمو مكانة والدتي « تي » عند أبي · فجعل لها قصرا في الكرنا بالغ الرونق والبهاء · وجعل لآمون زورقا فاخرا مغط بالذهب الخالص ينتقل فيه كل عام من قصره الرسمي ا معبد الاقصر حيث يفرغ لحريمه حينا

ـ ما أظن تلك العادة ترجع الى أيام والدك ؟··

ـ بل هي تسبقه طبعا ·· ولكن المهم أن أبي عني بها كثيرا ، فرتب له الزورق ، والقصر الذي يمتع فيه نفسه بلذة الهوى ··· أما المناسبة نفسها فقديمة جدا ، وا يرتجلها الكهان اعتباطا ، بل في موسم الفيضان ، في شه « بابه » رمزا الى زواج النيل بأرض الوادي زواجا يجن الناس منه الخصب والخير العميم ··· وقد افتتن أبي في بد

القصر فجعله واسع الارجاء فسيح الرحاب ، وزخرف كل موقع للعين فيه من السقف الى الارض الى الجدران والعمد بروائع الفن الزخرفى الفرعونى ، وعنى بتذهيب الابواب ، وأعلى برجه الى عنان السماء • ولم يكفه هذا فجعل الطريق بين قصره الرسمى فى الكرنك وقصر الحريم فى الاقصر شيئا فذا فى تاريخ العمارة • فعلى الجانبين تماثيل سباع لها رؤوس كباش !•• السباع رمز القوة فى النزال والنضال والكباش رمز آمون نفسه ، لانها مضرب المثل فى الخصب وقوة الانسال • وبذلك تجمع تلك التماثيل بين القدرة على الدفاع ، والقدرة على المتاع•••فهى تحية بلغة ذلك الأوان وان اختلف مدلولها باختلاف الزمان !••

ــ يا لها من رموز ، ويا لها من تحية !••

ــ تلك يا بنية أول واجبات الملك نحو الآلهة ، وذلك بعض ما قام به أبى •• خصصته بالذكر لأنه أظهرها وأكثرها دلالة على تكوين طبعه • أما سائر واجبات فرعون فهى الحكم •••

ــ هذا طبيعى يا مولاتى ، ولكن كيف يحكم ؟•• اننى لأعجب كيف يتسنى لحاكم فرد مثله أن يزن الأمور ويحكم التدبير ، وكيف لا تودى بحكمته غواية السلطان وغروره !؟

ــ رويدك ! فان حكومة فرعون موضوع وهم طائش شاع فى الناس بغير مبرر •• أجل انه وكيل الآلهة على الوادى ولا شريك له فى ذلك المقام السامى • ولكنه ليس حاكما مطلقا •• كلا ، بل هو على النقيض من ذلك •••

فندت منى كلمة ساخرة قاطعت بها الملكة دون أن أتنبه لها :

ــ لعله كان ملكا دستوريا اذن ؟••

فنظرت الى الملكة نظرة جد ، وقالت بكل وقار وثقة :

ـ وكذلك كان فرعون فعلا ، فهو أول ملك دستورى فى تاريخ العالم !

ـ وى ! ان هذا لعجيب ••• وعفوك اذا قلت انى لو لم أسمعه منك ياصاحبة الجلالة لما أعرته إهتمامى وتصديقى ••

لباب الناموس

فقالت نفرتيتى فى هدوء وأناة :

ـ أعيرينى سمعك ••• وحاولى أن تتصورى الأمور بالعقل لا على ضوء ما ملأ الناس به أذنك من الاخطاء والاوهام

ـ انى مصغية •• فهاتى ••

ـ ما معنى الدستور ؟ انه النظام الاساسى الذى تقوم عليه قوانين الدولة ، فلا تكون العوبة لذى هوى ••• أليس كذلك ؟

ـ بلى •• هو كذلك

ـ ولم تكن دولة عريقة كمصر خالية من ذلك القانون الأساسى الذى ينظم سياسة مصالح الأمة • وانما يخطىء الناس فيحسبون أن مصر لم تكن بلدا دستوريا ، لانهم يخلطون بين النظام الدستورى اطلاقا ، والنظام الديموقراطى على وجه التحديد • فقد تكون الدولة دستورية ولكنها غير ديموقراطية •••

ـ ما أصدق هذا يا مولاتى ، وان غفل عنه الناس

ـ وغفل عنه شاعر منكم ، فقال يعير فرعونا من أسرتى قائلا :

فؤاد أعز بالدستور دنيا
وأعظم منك بالاسلام دينا

فأما الدستور ، فلكم أن تفخروا أن مصر القديمة كانت

على الدوام بلدا دستوريا ، فلم يحكمها طاغية مطلق السلطان قط ! وأما الاسلام يا بنيتى فأنعم به وأكرم .. ولكن ما ذنب فرعون ؟ وهل كان عليه أن يعتنق الاسلام قبل بعثة نبى الاسلام ؟...

ــ مولاتى ! انه قول شاعر على مذهب القائلين : ان أعذب الشعر أكذبه .. ولكنى مشوقة الى معرفة فحوى دستور مصر القديمة ...

ــ ذلك يا بنيتى هو « الناموس » . فالسلطة فى مصر مشتقة من الدين .. وفرعون يحكم باسم الآلهة لانه وكيلهم أو من ذريتهم . والدين ــ ولاسيما الديانات القديمة ــ ينظم كل شىء فى حياة الناس والجماعة بطقوس وعقائد لا سبيل الى التحرر منها . ففرعون أول من يخضع لها ، وبها يسوس الناس .. وكل شىء فى حياته الخاصة والعامة ترسمه له أوامر الدين ونواهيه ...

ــ أفلا يقول : اقتلوا فلانا ، فيقتل ... أو : أطلقوه ، فيطلقونه ؟..

ــ يقول ، ولكن لا اعتباطا ، بل بحسب الناموس . فالناموس ينظم وظائف الدولة وسلطاتها ، ويفصل بين سلطة الادارة أو التنفيذ ، وسلطة القضاء .. وأما سلطة التشريع فذلك هو ناموس الآلهة الذى يتولاه الكهنة بالتفسير والتعديل حسب مقتضيات العصر

فى مصر نظام

ــ عجبا .. ألم تكن أموال مصر كلها أموالا خاصة لفرعون؟

ــ أين يذهب بك وهمك يا فتاة ؟ أتظنين فرعون قاطع طريق يجمع المال غصبا من الناس كما يتراءى له ؟ كلا وأبيك ! ففى مصر دولة ونظام ، ونصيب معلوم من الاموال للآلهة ولبيت المال ... وهناك رجال أمن يقومون على

النظام ، وجباة يحاسبون على ما يجبون من الخلق حسابا عسيرا ...

ـ لقد كان له وزراء اذن ؟...

ـ ان لم يكن لفرعون الوزراء ، فلمن يكونون ؟.. لقد كانت السياسة شيئا عريقا فى مصر ، فكان فيها طراز من رجال الدولة يعتمد عليهم فرعون ويحترمهم ويصغى لنصحهم وسأقول لك خبرا يدهشك حقا .. ان انجلترا تجعل وزير العدل أو قاضى القضاة مقدما على جميع الوزراء ، ومرتبه أكبر من مرتب رئيس الوزراء ...

ـ هذا صحيح ...

ـ انهم مسبوقون فى هذا ... فكذلك كان وزير العدل على عهد الفراعنة !

ـ مرحى ! مرحى !

ـ وأكثر من هذا يا بنت هذا الزمان ، هناك حكاية يتشدقون بها اليوم ، هى « اللامركزية »

ـ أجل ..

ـ وفى هذا أنتم أيضا مسبوقون ، مسبوقون بآلاف السنين ! فكل وال فى ولايته فرعون صغير ، تتبعه سلطات قضائية وادارية ومالية وكهنوتية . ولكل ولاية مراسم الاهها الخاص ـ وهى فى مجموعها وجوهرها متقاربة ـ ومجلس شوراها الذى يرجع اليه الأمير فى أمور الاقليم . وكانت تتبع المعابد الكبيرة مدارس يتعلم فيها الموظفون ناموس الدولة ، وحقوق الناس وحدود المعاملات ، حتى تكونت مع الزمن « بيروقراطية » مصرية ، وطبقة وسطى من الموظفين تطاول طبقة الاعيان ...

وعندئذ غلبتنى سليقة « المعابثة » فقلت مازحة :

ـ لم يبق يا مولاتى الا أن تقولى انكم عرفتم فى زمانكم قانوننا الحديث : « من أين لك هذا ؟ »

وبكل جد ووقار قالت الملكة :

ـ وهذا أيضا عرفناه بالتأكيد ٠٠ فكان المتهم بالاختلاس يسأل عن مصادر غنـــاه ، كما يسأل عن غنى ذوى قرباه وامرأته وبنيه !

ـ مولاتى ٠٠ لا أدرى أى الشعورين يغلب عـلى نفسى : شعور الفخر بالاجداد الميامين ، أم شعور الخجل من الحاضر المتخلف ٠٠

ـ لا عليك ٠٠ فهناك شىء يحق لك أن تفخرى بأن زمانك لم يتخلف فيه عن زمانى

ـ اسعفينى به مولاتى ٠٠ ما هو ؟

ـ ذلك يا بنية هو نظام القضـــاء المصرى ٠٠ فقد كان دائما فى مصر قضاة ، وقضـــاتكم اليوم جديرون بآبائهم الاولين على عهد الفراعين ٠٠٠

ـ ان قضاءنا قبس من شرع الله ، ومن نظم الغربيين ٠٠٠

ـ وقضاؤنا نحن كان قبسا من دولتنا الدســـتورية ، لا فضل فيه لأحد علينا من العالمين ٠٠٠ وانه لعمرى لقضاء متين ٠٠٠

ـ زيدينى بيانا يا جدتى يا ذات الجلال والجمال ٠٠٠

ـ أول ما يلفت النظر هو التقارب بين تقاليــــد قضائنا القديم وتقاليد قضائكم الحديث ٠٠ فالقضاة ورجال العدل مهما صغرت وظائفهم يعيشون دائما بمعزل عن النـــاس ، وتحرم عليهم التجارة وتبادل المجاملات والهدايا ، لضمان الثقة فى ضمائرهم ، ولتمام النزاهة وكمال الهيبة ٠ فالعدل أساس فى الدين عندنا ، والحساب والعقاب فى الآخرة ركن أساسى من أركان الدين ٠٠٠ كما يحرم على القضاة استغلال

النفوذ ، فلا يذهب إحدهم الى السوف
لا يحرج الناس فيبيعونه بالبخس تنز

ـ ان هذا والله لغاية الكمال فى ت

ـ ولا تحسبن عين فرعون وخاصـ
فاذا ثبتت تهمة عـــلى قاض أو رجـ
والتحقيق كان عقابها جدع الأنف ،
بين العالمين ...

ـ ذلك يا مولاتى فظيع ...

ـ ولكنه فى عين العدل ليس أفظ
الذمة واستغلال النفوذ على حساب
فحماية هؤلاء أوجب على ولى الأمر م
الدولة الخائنين الامانات والعهود..و
وفقرهم أشنع جريمة يقع فيها موظف

ـ وهل كان ذلك مرعيا فى شئون
الأميرية ؟..

ـ ولا مراء .. فقد كان منصوصـ
على التنازل عن ثلثى الضرائب المتأخر
معسرا ...

ـ ليس بعد هذا عدل ولا رحمة

سواسية كاسنان !

ـ بل خير من هذا يا بنت هـــذا
كانوا أمام القانون واجراءات القضـــ
المنـــط ...

ـ حتى علية القوم والخاصة منهم

ـ نعم حتى الأكابر والخاصـــة
فرعون أو زوجه أو أخته .. فلا مح

لا يطلب فرعون عقد المحكمة فى مجلسه أو تحت رئاسته .. كما قد يحق له فى جرائم الخيانة العظمى ، وقد سلفت فى التاريخ الفرعونى محاكمة قوم من بيت الملك بجرائم غير عامة ولا تتعلق بنظام الدولة وأمنها ، فجرت المحاكمة امام القضاء العادى

ـ مرحى .. مرحى ..

ـ وحقوق الدفاع مكفولة كل الكفالة لكل متهم مهما كان جرمه .. ولكن الضرب الموجع كان من أدوات التحقيق اللازمة فى تنظيم الجنايات ، وأحسب أن هذا شىء قد برئتم منه يا حفيدتى ...

فتنحنحت كأن شيئا يشغب فى زورى وغيرت مجرى الحديث :

ـ ولكن اين كانت تعقد المحاكمات ؟ فى العلن او فى الخفاء ؟

ـ كثيرا ما كانت المحاكمة تعقد فى موضع الجناية ، حيث تؤثر ظروف الجريمة على اعصاب الجانى فينهار انكاره ويعترف .. ولكن العلانية لم تكن شرطا للمحاكمة ، لأن السلطة لا تستمد من جمهور الأمة ، فلا محل للرقابة الشعبية . اما العقاب فتتوخى فيه العبرة ، ولذلك كثيرا ما يكون على رؤوس الأشهاد ...

□

وقلت لنفرتيتى :

ـ آمنت يا مولاتى أن فرعون لم يكن طاغية على قومه ، وان التقاليد الدستورية كانت راسخة فى وادى النيل على عهد الآباء الأمجاد

ـ بل انه لولا غرور المنصب لفر الفراعين من قيود حياتهم ، لأنهم كانوا مقيدين « ببروتوكول » دقيق فى كل

شيء ... ففى بكرة الصباح يستيقظ فرعون فيقرأ البريد، ثم يستحم ويرتدى شارات الملك ، ويقدم القرابين للآلهة . ويصغى لصلاة يتلوها كبير الكهان .. ثم يوزع ساعات النهار بين المقابلات الرسمية والنزهة والصيد .. وهو فى ذلك كله محوط بالحاشية ، وبهالة المنصب الرفيع ، فلا يتحرك حركة الا بمقدار يقدر لها من قبل ...

ـ ما أعجب مصائر البشر .. يظن الواحد منهم أنه ملك الناس ، فاذا الناس يملكونه ، حتى فرعون ! فهو لا يعدو أن يكون « موظفا عاما » بل « مجندا » تحت التاج لخدمة أمة يحسب هو ويحسب الناس أنها ملك يمينه !..

ـ هذا صحيح .. ولكن لا تنسى يا حفيدتى أن هذه الأعباء الجسام يتفاوت الملوك والفراعين فى صدق النية والجهد للنهوض بها ، فمنهم من ينهض بها خالص القلب لها ، ومنهم من يخلبه البريق واللألاء ، فلا يحمل من تلك الأعباء ، الا القدر الذى ييسر له المتعة بأبهة العرش وجاه الملك ...

أبّهة الملك

اذا فسد الناس

قلت للملكة بعد هذا :

ــ ان الواجب وقيام الناس به أمر حير الخلق منذ زمن بعيد . بل هو أكبر هموم المصلحين والدعاة .. ولكن المشكلة الكبرى فى هذا الموضوع ، هى ان فريقا من الناس يقول : « أصلح الراعي تصلح الرعية » .. وفريق غيرهم يقول : « أصلح الرعية يصلح الراعى »

فضحكت نفرتيتى وقالت :

ــ ما أشبه هذا فى ظاهر الأمر بالاشكال القديم « أيهما أسبق فى الوجود : البيضة أم الطائر ؟ » .. ولكن الامر فى موضوعنا أيسر من البيضة والبائض . فلا شك أن الجماعة أسبق الى الوجود من القائمين عليها . ففساد الناس ينجم عنه فساد الحكام . أما الحاكم الفاسد فى الأمة الصالحة فأمر لا يقوم ، واذا قام لا يستقيم ولا يدوم .. فلا فساد الا بالتواطؤ الضمنى بين الحاكم والمحكوم

ــ وشبهة أخرى يا ذات الجلالة ..

ــ هاتيها

ــ القوانين .. أليس صلاحها ضمانا لصلاح الحال ، لأنها تقيد ولاة الأمر بقيودها ، وتحملهم على الحذر من الوقوع تحت طائلها ؟.

ــ قول مردود .. فليست القوانين مجدية بغير الضمائر ورقابة الاحساس الخلقى فى الجماعة الواعية .. وقد صدق ذلك الحكيم الاغريقى الذى تلا زماننا بزمان طويل ، حين قال

ان خير القوانين يفسد فى الجماعة الفاسدة ، وأسوأ القوانين لا يضر ــ اذا لم يصلح أمره بالتطبيق ــ فى الجماعة الفاضلة

ــ العبرة اذن بالأخلاق ..

ــ أجل .. ولكن حذار من فهم الأخلاق على صورتها السلبية

ــ وما الأخلاق السلبية ، وما الأخلاق الايجابية يا مولاتى ؟

ــ الأخلاق السلبية هى التى تقوم على « الامتناع » عن الاعمال المرذولة . فالشرف فيها عدم الزلة .. والامانة فيها عدم الخيانة ، والخير فيها عدم فعل الشر ...

ــ سمعنا ووعينا .. فما الأخلاق الايجابية اذن ؟

ــ هى تلك التى تقوم على « فعل » الفضيلة وممارستها ، ولبابها كله هو حمل المسئولية والاخلاص فى أدائها ... والشجاعة فى محاربة الفساد ، والصلابة فى الصمود لغواية الشهوات التى تضر بالجماعة . فلا اخلاق بغير مسئولية ، ولا فضيلة بغير شجاعة وانكار للذات

ــ كل هذا جميل .. ولكن كيف تكون المسئولية بالنسبة لفرعون وهو مصدر السلطات ؟..

ــ على رسلك .. انه مصدر السلطات بوصفه وكيل الآلهة ، فهو مقيد بالناموس ..

ــ ولكن اذا قلنا ان فساد الجماعة هو علة فساد الحكام ، تعارض ذلك مع القول بأن فرعون لا حساب عليه من الأمة . فانما يحسب حساب الراى العام من يخشى غضبته ويعتمد على ثقته ...

ــ ليس هذا صحيحا وان بدا انه صحيح ... فانه ما من انسان مهما علا مقامه يعيش مستقلا عن جو المجتمع وقيمه الخلقية ، فهو متأثر بها لا محالة ، منساق اليها فى الغالب الأعم . يضاف الى هذا أن كل انسان محتاج الى الشعور

بتقدير الناس له ، فلا يستطيع أحد أن يضرب بذلك التقدير عرض الحائط ، سواء كان هذا التقدير عن حب أم خوف .. ومن هنا كان فساد الناس وانحطاط مستوى قيمهم الخلقية شرطا أساسيا لفساد الحكم وهبوط مستواه

ــ ذلك لعمرى فصل الخطاب ...

ــ وفيه تعليل التحول الذى بدا واضحا فى عهد أبى امنحتب الثالث .. فقد تحول الملك من الجد الى الزهو والأبهة والتقلب فى النعيم . ولكنه لم يصل الى حد الاستهتار التام ، وما كان ممكنا أن يصل الى هذا أبدا ...

ــ ولماذا ؟

ــ لأن الحكومة لا تفسد جزافا ، بل بقدر فساد الزمن . فأمام فرعون ناموس قائم ــ وان كان التساهل فى ظروف الانحلال ممكنا ــ وكان أمامه سلطان الكهنة وأمراء الأقاليم .. ثم ان الأبهة نفسها تلزم صاحبها بنوع من الكرامة والترفع ــ تسمونه الارستقراطية بلغة هذا العصر ــ يغنى عن الغيرة الحقيقية على مبادىء الأخلاق والصالح العام ..

ــ قصارى القول اذن يا مولاتى أن عصر أبيك كان عصر تحول عن العمل الى الترف ، ومن الخدمة العامة والبذل فى سبيل الجماعة الى المنفعة الذاتية وتكالب على المغانم واللذات

ــ ذلك كذلك وا أسفاه !..

اعتاب فرعون ..

واطرقت الملكة حينا ، فلم أرد أن أعكر عليها صفو تفكيرها ، الى أن رفعت رأسها ، وصعدت آهة تنبى عن حسرة ، فقلت :

ــ ما خطب مولاتى ؟

ــ لا شىء .. انه الحديث يا بنية ، والحديث ذو شجون .. فقد تذكرت ملاعبى فى طيبة ، وفى أرباض مدينة حابو على

يمين النيل ، وفى منف حاضرة جيش فرعون اذا هجرت حرارة الصيف ...

ـ رعى الله مولاتى ... أهو الحنين الى الصبا الفينان ؟

ـ أجل ... ففى تلك الملاعب من ساحات قصور فرعون أبى ، أو أعتاب فرعون كما كان يدعوها الناس ، نشأت بين البر والحنان والتعظيم ..

ـ وكيف كان مقامكم بها ؟

ـ أطيب مقام ! ففى أوان الشتاء كان مقر أبى الرسمى فى قصره الملكى بطيبة ، التى جملها وعمرها حتى صارت أجمل عواصم الدنيا حتى ذلك الزمان . وجعل قصره فيها تحفة فى الأبهة التى تخشع لها القلوب .. ولكن أمى « تى » كانت تكره الاقامة بذلك القصر ، لثقل الهواء فى المدينة الكبرى ، أو لكراهتها جو القصر الرسمى الحافل بالضرائر والحظايا ، فابتنى لها أبى قصرا على يمين النيل ، حيث الهواء النقى فى حضن الجبل ...

ـ أعن يمين النيل تقولين ؟.. أليست الضفة اليمنى مدينة الموتى يومذاك ، بل هى كذلك الى اليوم فى بلاد من الصعيد ... مثل المنيا من أعمال الأشمونين ؟..

ـ أجل .. كانت الضفة اليمنى مدينة الموتى ، ولكن أبى لم يأبه بالتقاليد وابتنى لأمى قصرا ريفيا فى ذلك المكان ، تحيط به حديقة غناء ، فجاء آية فى الترف والابداع الفنى ، مع بساطة تشيع الهدوء فى النفس ، وتوخ للظل ورطوبة أنفاس الهواء تحت السقائف والعريشات ... أما الرسوم التى تغطى الجدران فلا حد لروعتها وما تسببه للنفس من راحة وانطلاق ... ومن أسف انه قد عفى عليه الزمن ، كما عفى على قصرنا الرسمى فى طيبة ..

ـ أجل ، لقد زالت من الوجود ديار الفراعنة ، ولم تبق الا قبورهم ...

ــ ولا عجب يا بنية !.. فقد كنا قوما نؤمن بالحياة الخالدة بعد الموت ، وعودة الروح الى الجسد ، وكنا نعلم ان هذه الحياة الدنيا لا بقاء لها ، ففيم انفاق الجهد والمال فى بناء الدور لحياة لا تدوم ؟ خير من ذلك بناء قبر يقاوم الزمن لحفظ ذلك الجسد الى أن تعود اليه الروح ولو بعد ألوف السنين ... لذلك كانت أعتاب فرعون ، أو قصوره التى يقيم فيها للحكم أو للاستجمام من اللبن كسائر بيوت اهل النعمة من المصريين ، ولكن زخرفتها وزينتها ووسائل الراحة فيها كانت شيئا يفوق التصور فى بذخه وجماله ... وهو وااسفاه جمال وبذخ لم يكتب لهما الدوام ...

ــ كان اذن قصر « تى » الصيفى من اللبن ايضا ، على ابهته وروعته ؟..

ــ أجل .. ولم يدخر أبى وسعا فى توفير اسباب المتعة فيه . فقد شكت اليه أمى الملكة يوما من جفاف الهواء وسخونته ، فأمر أن تحفر بجانب القصر ، فى مهب الريح ، بركة هائلة طولها ٣٧٠٠ ذراع ، وعرضها ٧٠٠ ذراع فلا تضيق بسخونته وجفافه أمى الملكة الكبرى « تى » . ثم جعل على البركة زورقا مصفحا بالذهب الخالص ، ليذرع فيه البركة مع أمى فى هدأة الأصيل ، ترويحا عن النفس فى ذلك المحيط الطبيعى الرائع بجباله وصمته العميق ...

ــ ذلك كان منتجعكم للراحة فى أيام الشتاء ، اذا آدكم قصر طيبة .. وأين كان مصطافكم اذا هجر الصيف فى « منف » ؟

ــ فى قصر منف ، الذى بناه لأبى وزيره القائم على الجيش ، فافتن فى رفع عمده وتزيين أسواره وأبوابه ، ليكون لائقا بالقائد الأعلى لأعظم جيش فى الدنيا ...

ــ تلك هى « الجدران » .. فما خبر السكان ؟

ــ مئات من الحور العين ، من بنات الملوك والامراء فى الشمال

والجنوب ، ومئات من الخدم والعبيد ، فى ازياء بلادهم المتعددة الالوان والطرز . واما الاثاث فكان آية فى دقة النقش ، وجودة الأخشاب ، فلكل قاعة مقاعد من طراز خاص ، تلك للأمراء ، وهـذه للوزراء ... فما أكثر تفنننا فى المقاعد والأسرة ، منها ما يعد للاستقبال ، وما يعد للرحلة والقنص ، وما يعد للراحة ، وما يخصص للطعام

زينة فرعون

ــ كل ذلك يا مولاتي نقدره ونتصوره ، ولكنني اشتاق ان ارى يوما من ايام فرعون فى قصره ، بين النعمة والنعيم

ــ هو على هين .. فاتبعينى ، مغمضة العينين ، ولا تساليني الى أين ، ولا تفتحيهما حتى آمرك ..

واغمضت عيني ، فلمستنى من جانبى راسى بيديها ، ووضعت ذراعها حول خاصرتى ، فكاننى طرت فى الهواء ، أو هبطت واديا مسحورا لا يحس له جرس ولا يسمع فيه حس . ثم سمعت صوت نفير ، وقرع طبل كبير ، وصيحة كصيحات الحراس ، ثم قالت لى الملكة :

ــ الآن افتحي عينيك ، واطمئنى فسوف لايراك ولا يراني ولا يسمعنا أحد ، وان كنا نسمع ونرى ونفهم على غرابة اللغة ...

ــ وما صوت النفير الذى سمعت ؟..

ــ نوبة الصباح فى قصر طيبة

وقلبت طرفى من حولي .. فاذا عمد رشيقة القد سامقة الطول ، عليها نقوش وزخارف ، وصور صيد ، وفتح ، وأسرى تقاد ، وفرعون على عرشه يتقبل منهم الولاء والخشوع .. وبهو واسع الأرجاء ، عليه سقف تتوسطه فتحة مربعة من فوقها عريشة تمنع هاجرة الشمس وتسمح للنور بالنفاذ .. واستولت على الروعة مما ارى ، حتى

نبهتنى نفرتيتى ، وفى صوتها غنة حنين ورقة لملعب الصبا :

ــ الآن صحا فرعون .. وهو فى هذه الحجرة عن اليسار ، يتزين ويرتدى ثيابه ويستعد للقاء الناس ، فى يوم من أيام فرعون الحافلة ..

وتبعتها ، فاذا فرعون عليه قميص رقيق ، وقد حف به نفر من كبار دولته ورجال حاشيته ، وقد انحنى على يديه عامل يسوى أظافرهما ، وعلى قدميه عامل آخر يشذب أظافرهما ، وعند رأسه حلاقه الخاص يحلق له رأسه فلا يترك فيها نابتة من الشعر ، ويحلق له لحيته وشاربه . وهو يجاذب رجاله ونفرا من حريمه أطراف حديث عن بريد الشام وبلاد النوبة .. ثم وضعوا على جسده زيه الملكى

ولم يكن ذلك الزى أفخم وأبهى من زى الأمراء وقواد الجيش فحسب ، بل كان مرعيا فيه ابراز ما للابسه من مقام لا يعدله مقام .. فلا يمكن أن يظهر فرعون للناس عارى الرأس .. كلا ! بل يلبس شعرا مستعارا كذلك الذى يلبسه قضاة انجلترا فى هذا الزمان ...

ــ الا يضيق الملك بهذا الشعر المستعار يا مولاتى ؟.. ان عزاءه على كل حال أنه يخلعه عنه اذا خلا الى خاصته وآله

ــ على رسلك ! انى لم أر أبى عارى الرأس أبدا ، فذلك تبذل لا يسمح به حتى امام الأبناء .. أما اذا جاء وقت النوم فتلك مسألة أخرى . انظرى .. هذا هو تاج النيل ، تاج الشمال والجنوب يوضع على رأس أبى

ونظرت ، فاذا التاج المزدوج وقد علا رأس الملك ، وغطى الشعر المستعار الذى كان يعلوه ، ولكن كانت تتدلى منه على العارضين شعرات تصله بلحية طويلة مستعارة ، كلحى الآلهة ...

ــ أيلبس هذه اللحية دواما ؟

ـ كلا !.. انه لا يلبسها الا حين يرتدى التاج ، لعمل من اعمال « التشريفة » الكبرى .. اما فيما عدا ذلك فلا لحية ولا تاج . انظرى !.. لقد لبس فرعون ثوبه المعد للحفلات والمراسم ..

ونظرت فاذا ازار كثير الثنيات الرفيعة « بليسيه » تتوسطه منطقة ، عليها شعار فرعون فى « خرطوشة » جميلة النقش ... وفى قدميه نعل خفيف مكشوف محلى بالذهب

وكانما بدا على وجهى اننى كنت انتظر شيئا خيرا من هذا ، فقالت نفرتيتى :

ـ صبرا ، ليس هذا هو أهم ما فى زى مولانا .. هاك !..

وتطلعت ، فاذا حلى تخطف الأبصار بسناها وبديع صنعها ، اهم ما فيها قلادة فاخرة كثيرة الصفوف بعضها من لؤلؤ وبعضها من ذهب ، ولها فوق العنق من خلف قفل على هيئة راس الصقر ، والصقر من آلهة المصريين المعبودة . وكان الصف الأخير من لآلىء القلادة يشبه الدموع فى صفائه ورونقه وشكله العام ...

ولم املك نفسى ان اهتف :

ـ ما ابدع هذه القلادة وما اروعها !..

فابتسمت نفرتيتى ابتسامة خفيفة ، وقالت :

ـ آه لو لبستها يا بنية ...

ـ اهذا ممكن ؟..

ـ تعالى البسك مثلها .. ففى خزانة فرعون عديد من القلائد

وصحت دهشة ، فقد كانت القلادة ثقيلة جدا ... فقلت :

ـ وى ! هذه والله نير ثقيل وليست قلادة ملك !

وابتسمت ابتسامتها الحزينة مرة أخرى ، وقالت :

ــ كذلك كل شيء يتصل بالملك ، ظاهره مرموق محسود ، وباطنه يستحق الشفقة ، وتنوء به الكواهل الشداد .. ولكن لا يشغلنك الحديث عن بقية المشهد ، فليست هذه القلادة التى تزن بضع أفات كل ما سيسير به أبى المسكين من أثقال ! ..

ونظرت ، فاذا فرعون وقد زادوا عنقه أثقالا بلوحة من ذهب مصوغة على هيئة واجهة المعبد المقدس ، مدلاة على صدره الملكى تحت القلادة بسلسلة ثقيلة مزدوجة ! ثم شدوا كل ذراع من ذراعيه باسورتين ضخمتين احداهما قرب الكتف ، والأخرى عند المعصم .. وجعلوا عند كعبيه أسورتين من طرازهما ..

وأخيرا ، وضعوا على منكبيه رداء طويلا من نسيج شفاف ، قصير الكمين ، يضمه عند الوسط حزام آخر مرصع بالشعار الملكى من أمام ...

وبذلك تمت زينة فرعون ...

فى قاعة العرش

وانتقل فرعون بعد ذلك الى قاعة عرشه الكبرى يحف به الملأ من رجال القصر والوزراء .. كلهم فى عنقه قلادة ، يختلف طولها ومعدنها وكثرة أفرعها بحسب منزلته فى الدولة . فقد كان اليوم مخصصا لاستقبال السفراء ...

وجلس فرعون فوق عرشه الفاخر المصنوع من خشب الأبنوس ، والمرصع بنقوش فاخرة مذهبة فيها حجارة كريمة من الزمرد واللازورد . والعرش فوق منصة عالية فى صدر القاعة الفسيحة السامقة العمد ، التى تغلب عليها البساطة النسبية ، لأنها أدعى الى الهيبة والاجلال

ومن وراء الملك حامل مروحته .. وهو أعلى رجال

الدولة مقاما ، فهو ليس مجرد حامل مروحة ! كلا ، بل هو أقرب الناس موقفا من فرعون ، وأدناهم الى أذنه بالمشورة والنجوى فى كل أمر ...

وقالت الملكة وهى تشير الى حامل المروحة :

ــ الا تعرفين هذا الرجل السمح ؟

ــ أكاد أذكر اننى رأيت له صورة فى كتاب ...

ــ انه جدى ، والد أمى الملكة تى .. صاحب المشورة والحظوة

وفى جانبى العرش ، على أرض الحجرة الحجرية ، وقف رجال الدولة كل عند رتبته ، مطأطئين رؤوسهم ... والحراس والحجاب عند أكناف الباب . وجلس القرفصاء قرب درجات العرش جماعة من الكتاب فى أيديهم الألواح والأقلام لتسجيل أوامر فرعون الملكية ، وما يجرى أثناء الاستقبال من الأقوال

ودخل أولئك السفراء ووراءهم حملة التحف والهدايا . وكانوا خليطا من ممثلى ملوك سوريا والنهرين واقريطش ، فتطامنوا بين يدى فرعون . وقدموا هداياهم الثمينة ، وأعربوا عن مودة ملوكهم واجلالهم لعزيز مصر .. فقام الكتبة بتسجيل الهدايا واحصائها ، ثم أضيفت الى بيت مال الملك ، بعد أن حمل جانب منها الى خزائن الآلهة فى المعابد الكبرى

وبعد ذلك تكلم فرعون .. فأهدى الى كل سفير هدية أثمن من التى جاء بها ، ليحملها الى مولاه . وأهداه هدية أخرى لشخصه ، لكى يعلم الجميع أن فرعون كجبل الذهب الذى يفيض على جميع البلدان ..

ثم تململ فرعون فى مجلسه ، فكانت تلك آية ارفضاض الاجتماع ...

وخف فرعون الى جناحه الخاص ، لينضو عنه ثوب التشريفة الثقيل ، وتاجيه الكبيرين ، وقلائده التى ينوء بها جيده الملكى ...

ولى النعم

فقلت لنفرتيتى :

— هل انتهت مشاغل فرعون هذا النهار ؟..

— كلا ... فبعد قليل ستبدأ حفلة أخرى

— أيستقبل سفراء أخر ؟

— كلا .. بل يستقبل نفرا من رعاياه المبرزين ، من عسكريين ومدنيين ، ففرعون من أهم صفاته لدى شعبه أنه « ولى النعم » ، يجازى المحسن ويجزل له العطاء كرما منه ، فهو يجمع الممتازين من رعاياه ، الفينة بعد الفينة ، لكى يقدم لهم العطايا والانعامات ...

— أهى حفلة انعامات اذن ؟

— أجل .. والأصل فى هذه العادة أن فرعون كان يجزى البواسل من جنده بالمال وقلائد الذهب اذا أظهروا شجاعة وبأسا فى ميدان القتال تشجيعا لهم ولغيرهم .. ثم عممت هذه البدعة ، فصارت تقليدا يتمتع به المدنيون أيضا . ذلك أن المصرى بطبعه محب للسلم ، مقدر للخدمات التى تقدم أثناء السلام لخدمة الدولة والحضارة . فليست الحروب الا ضرورة لصيانة السلام ، فهو مقدم عليها فى العناية والقدر

— ولماذا لاينعم فرعون على هؤلاء فرادى ، دون أن يكلف نفسه مشقة حفل رسمى ؟..

— لأن الحفل أبهج للمنعم عليهم ، وأكثر تنويها بذكرهم ، وأفعل فى حفز النفوس الى مجاراتهم والاقتداء بهم ..

ثم قادتنى نفرتيتى الى خارج القصر ، فاذا ساحة كبرى

ـف بها بستان ، واذا المنعم عليهم يقـــدمون وقوفا فى
باتهم يقودونها بأنفسهم ، فالعــربات فى ذلك العهد لها
جلتان فقط ، ويقف فيها صاحبها وبيده عنـان الجواد ٠٠
يس لعربة أحد جوادان ، خلا فرعون نفسه ٠٠ فصفت
ك العربات فى الرحبة ، وأعنتها بأيدى السياس ، الذين
انوا يتبادلون الاحاديث فيما بينهم ، وقد يجاذبون أطراف
كلام حراس القصر فى غير كلفة ، ابتهاجا بذلك اليـــوم
يمون ، وكل سائس يطرى مناقب مولاه ويعدد مزاياه٠٠
وكنت أشعر بغبطة غريبة وأنا أتجول بين هؤلاء الناس
راهم وأسمعهم دون أن يرونى ويسمعونى٠٠٠حين نبهتنى
ن هذا الشعور نفرتيتى قائلة :
ـ انظرى نحو هذه الشرفة٠٠فحين يلتئم الجمع ، وتحين
اعة الحفل ، سيظهر أبى فرعون فى هذه الشرفة التى تفضى
يها قاعة ضخمة ذات عمد ، فيها موائد ونضد وصناديق
ات عدد ، صفت عليها أو فيها هدايا فرعون التى سينعم
ا على رعاياه المحسنين ٠٠٠ ورجال الحاشية يحفون بها ،
ى يقدموا لفرعون هدية كل واحد منهم متى جاء دوره٠٠٠
ورأيت تحت الشرفة القليلة الارتفاع رحبة نظيفة فيهـا
مص الزهر ، محوطة بسياج جميل ، ورجال التشريفات
الأمناء يتولون تنظيم المنعم عليهم صفوفا بحسب الدور
الأسبقية فى « البروتوكول »
وأخيرا ظهر فرعون فى الشرفة الملكية ، والى جواره الملكة
ى ، ومن خلفهما والدها حامل المروحـــة الملكيـــة وكبير
ستشارى الملك فى آن واحد ٠٠٠ فخر الجمع ساجدين ،
م تقدم أولهم فحيا الملك بذراعيه متقاطعين فوق صدره ،
دعا للملك وعدد مناقبه،فرد عليه فرعون مثنيا على اخلاصه
لعرش وحسن بلائه فى خدمته ٠٠ ثم ذكر المنصب الذى
فعه اليه جزاء ذلك الاخـــلاص ، وناوله هديته المنعم بها

عليه ، فأسرع رجال القصر بوضعها حـول رقبته ، لأنها قلادة كريمة تقوم مقام الرتب والنياشـين عندنا •• وقد تتعدد القلادات في المرة الواحـدة ، فيبلغ عددها ثلاثا أو أربعا من الذهب الخالص ، ثم يلقى اليه فرعون بهدايا أخرى من الذهب ، قوامها كئوس من خالص النضار •• ويصرف له جانب كبير من الاطعمة الملكية والنبيذ الملكى ، يحمله من خلفه أتباعه وهو منصرف من البـاب بين تحايا الموظفين والحراس والسياس ، فيستقل عربته الى داره ، يحف به أصدقاؤه وأولياؤه ، الذين يزيد عـددهم كلما تقـدم فى المسير ، حتى يضحى موكبه مظاهرة صاخبة عند وصوله الى الدار • فتستقبله امرأته وجواريه بالزغاريد ، وتقام مأدبة حافلة فى تلك الليلة السعيدة •••

ويتوالى فى القصر تقديم الانعـامات من ولى النعم ، حتى ينتهى الحفل ، وقد عم السرور كل انسان••وسجل الكتبة فى سجلات القصر تلك الانعامات مفصلة فى اسهاب

التابع والمتبوع

سيد العالم

وانصرفنا من ذلك الحفل الحافل ، فاتخذنا مجلسا تحت صفصافة علي الشاطىء من حديقة قصر « سيد العالم » .. ولمحت علي وجه نفرتيتي شيئا من الزهو بهذا الذى شهدنا ، فقلت كى أحفزها على الكلام :

ــ لقد آثرتنى مولاتى بسرف صحبتها الى زمانها ، فمالى أراها بمعزل عنى فى خلجات الشعور وسوانح التفكير ؟

ــ حاش !.. ولكنه شيء من الزهو وسيء من الحسرة

ــ أحسرة على ما فات ؟..

ــ بل حسرة لما فات ، وعلى ما جد فى أعقابه من الآفات . ففى ذلك الزمان الذى نشهده الآن ، كان فرعون سيد العالم وأعظم بنى الانسان ، وكانت مصر قصبة الدنيا وقبلة البلدان .. سيادتها على ضفتى الوادى لا يجتزىء منها مجتزىء ، ولا يجترىء عليها مجترىء... فالسودان ومصر شيء واحد وعروة وثقى ، بل لقد حدث أن تقلص سلطان مصر عن شمال الوادى ، فكان فى جنوبه أعز وأبقى .. أما اليوم يا بنيتاه ...

ــ واخزياه !.. ولا حول ولا قوة الا بالله !

ــ وبكم يا فتاة !.. لو صدقت النية وصح العزم !

ــ ولكن الناس فى زمانكم لم تكن بهم حاجة الى مناورات السياسة ومؤامرات الدس وتبادل المنافع ...

ــ على رسلك ! فان الانسان هو الانسان من أقدم الازمان .. والسياسة هى السياسة ما قامت الدول وثارت المطامع

وسكتت الملكة لحظة ، وسرحت ببصرها على أمواج النيل هنيهة ثم استطردت تقول :

ـ لقدكان فرعون يلبس لبلاد آسيا لبوسا يختلف باختلاف الاحوال : فهو آنا أب بر ، وآنا آخر فى جلد نمر .. فامراء البلاد المفتوحة يزاولون سلطانهم فيها تحت رقابة الولاة المصريين ..

ـ ولماذا لايمارس الحكام المصريون ادارة تلك البلاد مباشرة، أليس هذا اليق بالسلطان وأوكد له ؟.

ـ هذا أول ما يخطر على البال ، وهو أسهل الحلول وارضاها للغرور. والحصيف الحصيف من ينظر بعين الحذر الى مثل هذا الحل السهل وما ينطوى عليه من غواية واغراء ...

ـ تقريع عنيف ، ففيم هو يا مولاتى ؟

ـ ان الامم العريقة فى السياسة ، ومنها دولكم المعاصرة ذات الامبراطوريات ، تميل دائما الى حكم البلاد المغلوبة بقوم من ابناء هذه البلاد، ولاتستبقى الاسلطة الاشراف والتوجيه. وتلك خطة أريبة تنبى عن ذكاء : لانها لا تفوت على الغالبين شيئا من منافعهم فى تجارة او نفوذ ، وتنفعهم فى تحويل الحقد على الاحكام الجائرة الى قوم من ابناء البلاد . وتنفعهم كذلك فى اجتذاب عدد من وجوه تلك البلاد يتزلفون اليهم بغية الظفر بالمنصب يوما ما ، فتدور السياسة فى ذلك البلد المغلوب حول مرضاة المحتلين ، ولا تتالف جميع القلوب على دفعهم والخلاص منهم حين يحكمون حكما مباشرا ...

ـ هذه والله أحدث الآراء فى الاستعمار ...

ـ وهى كما ترين ليست حديثة ، الا اذا اعتبرت فرعون مصر من الحديثين ، ولكنه غرور ابناء الزمان الاخير يخيل

اليهم أنهم بزوا الاولين ، وهم عالة عليهم فى كل أمر .. تلك كانت حال الادارة فى المستعمرات ، تصدر الاوامر العليا من رئيس الوزراء ، ويتلقاها الولاة فيلقنونها الامراء من الاهلين ، وهؤلاء يقدمون لمصر ماطلبت متصدين له كمخلب القط الذى يخرج الكستناء لصاحبه من النار ...

جنوب الوادى

ــ تلك يا مولاتى مستعمرات مصر فى آسيا ، فكيف كان حكم مصر لشطر الوادى الجنوبى على عهد فرعون ؟..

ــ حكم أخ كريم لأخ كريم ، على اعزاز منه وتعظيم ... « فعنيبة » حاضرة المركز المعروف باسمها الآن ، كانت عاصمة المملكة المصرية الجنوبية ، التى تمتد حتى «نباتا» عند الشلال الرابع ...

ــ ما أبعد هذا البلد من طيبة عاصمة فرعون !

ــ انها الف ونصف ألف من الكيلومترات ــ مقياسكم الحديث ــ فكان « نائب الملك » يحكم ذلك الشطر الجنوبى من الوادى فى عاصمته عنيبة ، باسم فرعون ... ولا غرابة ! فان وحدة الشطرين أمرمعروف من حيث الجنس والحضارة فى فجر التاريخ، قبل أن تقوم الدولة قيامها على يد «مينا». ثم فرق الدهر بين الشطرين دهرا ، خطى فيه الشمال نحو الحضارة قدما ، وحالت حوائل دون ذلك التقدم فى الجنوب، الى أن عادت مصر تبحث عن « نصفها الغائب » ، حتى قيض الله لهما الوحدة على يد تحتمس الاول . فأنشأ وظيفة « حاكم الجنوب » ولقبه بأميركوش ، ومتعه باستقلال مذكور فى التدبير والادارة ...

ــ وكيف كان يعين ذلك الحاكم العظيم ؟

ــ من أهل الجنوب .. يختاره فرعون ، ويكرمه بألوان من التقريب والمجاملة لا يظفر بها أى حاكم من حكام فرعون ،

اظهارا لمكانة الجنوب الممتازة . فيحتفل بتنصيبه فى أكرم ساحة ، هى ساحة آمون كبير الارباب . . فهناك يمثل فرعون بجلال قدره ، ويقدم لنائبه فى الجنوب « خاتم السلطان » ، تشبها بخاتم فرعون نفسه ، ولا عجب ! فسلطانه يمتد من شمال أسوان الى الشلال الرابع

ـ والى أى حد كان يمتد سلطانه فى مرافق الدولة ؟

ـ الى كل شىء يخطر بالبال . . فهو قائد الجيش هناك يدفع البدو عن حدوده ، ويمد فرعون بفرق الجنوب فى جيش منف . واليه يوكل اختيار المواقع للحصون ، واقامة القلاع ، وتشييد المعابد ، والقيام على الرى والصرف ، وفى يده ميزان العدل والقضاء ، وسلطة الضبط والربط ، وجباية الخراج واستغلال المناجم والمحاجر والغابات . . واليه تدبير التجارة العظيمة على وجه النيل هابطة الى شمال الوادى

ـ تلك والله سلطات واسعة . . ولكن أخشى أن تكون جل أهدافها خدمة الشمال لا رفاهة الجنوب

ـ لا وابيك ! . . فقد كان قومنا أعقل من التورط فى مثل ذلك الخطأ الفادح ، فأول واجبات الحاكم العمل على ازدهار الزراعة والصناعة . فكان فى قصره نفر من امهر الصناع المصريين يقومون على تدريب أهل الجنوب أصول الصناعة والفن ، فما من شك أن مستوى الحياة قد ارتفع كثيرا على يد المصريين فى الجنوب ، وانه قد خطا بفضل معونة الشمال والاتحاد معه خطوات جبارة فى ركب الحضارة الذى سبقت اليه مصر الوفا من السنين قبل ذلك . . . وقد عرف الثقاة أن امور الرى على الخصوص كانت موضع عناية فائقـــة فى السودان أيام ذلك العهد الذهبى . وخير برهان على رفاهة السودان ورضاه عن ذلك الاتحاد مع مصر ، انه اصطبغ بصبغة مصرية خالصة فى سرعة عجيبة ، فعبد آلهة المصريين ، وتمصرت أقاليمه كل التمصير . . . ولا يكون ذلك لو أن مصر

حكمت السودان حكم غلبة واستغلال ، لا حكم أخوة ووحدة لا فرق فيها بين جنوب وشمال ...

الفطرة والتكلف

ـ اجل يا بنية .. ان وحدة الشمال والجنوب فطرة الله، لا اصطناع بنى الانسان ، وما جمعه الله لايفرقه الانسان ...

ـ ولكن ها هم يفرقونه فى هذا الزمان !

ـ لا تصدقى ! فهم يخدعون انفسهم حين يتوهمون أنهم يستطيعون لما فطر الله خلافا . فلا تحزنوا ، اذ لابد من التئام الجرح وتمام الوحدة عن قريب . لانها فطرة طبيعية ببرهان عملى من امبراطورية ابى فرعون ..

ـ وما ذلك البرهان يا مولاتى ؟

ـ ان مصر فتحت الجنوب ، وفتحت كذلك ملكا شاسعا فى أقاليم آسيا ، من فلسطين وفينيقيا الى وادى الفراتين فى اقصى الشمال ... فاصطبغ الجنوب بصبغة مصرية خالصة، ولم يصطبغ ملكها فى الشرق بتلك الصبغة .. لماذا ؟ جواب واحد يصح فى الاذهان ، هو أن الجنوب من طينة الشمال ، اما ذلك الشرق فليس من طينة مصر ، فكان ملكها فيه الى زوال ... وظلت دائما قلقة بسبب هذه الاقاليم الاسيوية التى تنكأ جروحها فى الحين بعد الحين بثورة دامية تريد بها التخلص من حكم مصر ...

ـ ان هذا لمزعج !

ـ اجل !.. ومن اجل ذلك اكتفى فرعون أبى من امراءتلك البلاد بالطاعة والجزية والاعتراف بتاج فرعون ، وتسهيل مهمة جيوشه اذا عبرت بلادهم للقاء عدو أو دفع غارة ... ولكن ...

وسكتت نفرتيتى عند « لكن » هذه ... فنظرت اليها مستفسرة ، فقالت فى أسف :

ـ ولكن هذا الشرق كان فى زماننا صورة مما هو عليـــه فى هذا الزمان الاخير .. تيارات من النفـــوذ والدسائس الخفية والتنابذ ، تفرق بين اماراته أمم الحيثيين والميتانى التى تتاخمها ، حتى كان بأسهم بينهم شديدا ...

ـ انها سياسة « فرق تسد » التى تعيش عليها بعض الدول الكبيرة فى هذا العصر الحاضر ... فلماذا لم ينتهجها فرعون .. ؟

ـ ماذا تقولين؟.. وهل يليق بالاسود فعل الثعالب وبنات آوى ؟! صه ! لا تبرر الغاية الوسيلة الاعند الاوشاب ونفايات الخلق ! وفرعون عزيز مصر .. وهو لا يريد لدول الشرق الا العزة بالاجتماع والتضافر ، فكيف ينشد العزة من هذا الباب الذليل .. باب الوقيعة والتفريق ؟..

صغار الاحلاف

ـ وماذا كان مستطيعا أن يصنع اذن ؟

ـ لقد استطاع وصنع فعلا .. استطاع ان يجمع هؤلاء الامراء المتنابذين فى حلف مع مصر ، ليكونوا اقدر على دفع العدوان ، وبحيث يخف فرعون الى خدمتهم متى اغار عليهم عدو شديد البأس ...

ـ ولكن ...

وسكت أنا فى هذه المرة بعد « لكن » لا أفصح عما بعدها ، فقالت نفرتيتى :

ـ ولكن ماذا ؟

ـ ولكن عهدنا بهذه الدول ، لا تحفظ عهدا ولا تقيم على ولاء ، ولا تسكت عن الدس والمناورة ، ولو فى غير مصلحتها المشتركة ...

ـ هذا صحيح !.. وكذلك كانوا ...

ــ فكيف اذن ، وقد عف فرعون الاسد عن سياسة فرق تسد ، تسنى له أن يحفظ ذلك الحلف من الانهيار ؟..

ــ بفعل الاسود وسطوتهم .. فقد كان يرقب أولئك الامراء مراقبة حذرة ، حتى اذا جاءه عنهم ما يريب فى ولائهم ، أحضرهم جميعا الى قصره فى طيبة ، وتولى محاكمتهم بنفسه ، فاذا ثبتت براءتهم كان خيرا ، واذا أخفقوا عاقبهم وذويهم بالبقاء فى مصر لا يعودون الى بلادهم أبدا ... وربما وصل العقاب الى حد القتل على الخيانة الثابتة ! فهو لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وابوة للشعوب والدول لا للامراء المهدرين مصالح أممهم ...

فقلت معجبة :

ــ نعمت السياسة يامولاتى .. وانها وايم الحق لسياسة أسد عرين لا يخاتل ولا يستكين ، ولكنه لا يذل الكرامة ولا يستهين بشعور المغلوبين ..

ــ ذلك صحيح .. ولكن أياك أن تظنى بفرعون مصر الاقفار من السياسة ذات الحدين ، التى تنطوى على البر ودفع الضرر والحذر فى آن واحد ..

ــ وما ذاك ؟..

ــ ذلك انه كان يدعو أبناء أولئك الامراء الذين يعرف أن ولاءهم مشوب بالزغل ، لكى يتربوا فى بلاطه مع خاصة ابناء فرعون ، فيكونوا ضباطا فى حرسه ، و « ياورانا » فى تشريفاته ... وينشأوا على الثقافة المصرية ، فيشربوا الميل الى مصر ، ليكونوا عند تولى الامارة فى بلادهم معها لا عليها بقلوبهم وسرائرهم ... وهم فى الوقت نفسه « رهائن » ، اذا لم يبق آباؤهم على العهد ، كانوا ضحية الخيانة والغدر ...

ـ انهااصابة عصفورين بحجـــر واحد .. وهى بعينهـــا سياسة روما بعد ذلك مع أمراء ذلك الشرق ، وهى أيضا سياسة هذه الدول المستعمرة فى الزمن الحديث ، حين تحاول نشر ثقافتها فى البلاد المغلوبة ، وتشجع بعوث أبناء الخاصة الى جامعـــــات بلادها ، وان كان زمان الرهائن قد مضى وانقضى ...

ـ أرايت ؟ كل أولئك « أطفال » فى السياسة بالقياس الى مصر الفراعنة يا بنية ...

فأجبتها :

ـ آمنت بالله يامولاتى ، انكم أساتذة السياسة الاولون ..

فقالت :

ـ وغاب عنك شيء .. غاب عنك اننا شرعنا سياســـة « المؤلفة قلوبهم » كما شرعنا سياسة الرهائن ... فكان الامراء الفقراء يتلقون الاعانات من فرعون مصر ، سيد العالم، لكى يستعينوا بها على حفظ مظهر الامارة ، فيكون ذلك ثمنا لضمان ولائهم ، وعدم ميلهم مع عدو فرعون وقت يجد الجد، وأولاء تربطهم بمصر بطونهم ، اذا لم تربطهم بهـــا قلوبهم وعقولهم . وكثيرا ما تكون بطن ابن آدم ـ بينى وبينك ـ هى الطريق السلطانى الى قلبه !.. وقد قيل فى الامثال « اطعم الفم تستحى العين » وكان ينبغى أن يقال كذلك : « اطعم البطن ينقد لك القلب »

ـ مولاتى ! ما أشبه الليلة بالبارحة ...


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آية الله

أول الغيث

. قالت الملكة الحسناء بعد اطراقة تفكير ، هزت بعدها رأسها الجميل الذى يعلوه تاجها الفريد :

ـ انى لأعجب من عجيب صنع الله ! كل يوم هو فى شأن !

ـ سبحان الله وتعالى !.. وماذا عجبت من صنعه ، وكل صنعه عجيب !..

ـ ذلك الملك الشاسع الذى امتد من طيبة شمالا ألفا وثمانمائة من الكيلو مترات ، وجنوبا الى نباتا ألفا ونصف ألف من الكيلومترات ... وتلك الكنوز وذلك الجاه ، والسيادة سيادة لا يكاد يشركه فيها أحد على أرض الله...

ـ ما خطبها ؟..

ـ ماذا أخرجها من طوايا الغيب ، وجعلها ـ بعد أن لم تكن ـ ملء السمع والبصر ؟

ـ هو الله ..

ـ أجل ، ولكنه يجعل لكل شىء سببا ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ! ولكن ليس فى هذا للعجب موضع فى كثير أو قليل ، فأى عجب فى أن تكون للنتائج مقدماتها وللأحداث أسبابها ؟

ـ ليس لهذا عجبت من الامر ، فالسببية لا تثير عجب السواد ، وان عجبت لها عقول كبار فى تاريخ هؤلاء الناس . وانما يعجب الناس من سبب لا يرونه من معدن نتيجته . فاذا خرج الشبل من ظهر الأسد لم يعجب لذلك أحد ، أما

اذا خرج الشبل منظهر الحصان أو الجمل،فذلك هو العجب العجاب فى باب النتائج والاسباب ..

ـ صدقت مولاتى ! ولكن أين الحصان وأين الشبل ، فى هذا الملك الذى لم يظفر به أحد من قبل ؟

ـ ان هذا الملك ، أو تلك الامبراطورية الفرعونية لم تقم عن رغبة فى الفتح بسبب ضيق وادى النيـــل وعجزه عن كفاية أهله حاجات المعــاش الرغيد . كلا ! بل غزيت مصر قبـــل ذاك .. غزاها قوم من الرعاة ، عرفوا بالهكسوس ، فاستقروا فى دلتا ذلك النيل ، وكادوا يبقون فيها الى الابد، لولا أن صح عزم الكرام من أمراء طيبة فى صعيد مصر الحر على طردهم، فتلقفوا الراية كابرا مقداما من بعد كابر مقدام ، حتى طردوا من مصر أولئك الرعاة الغزاة .. فكانت آية الله !

وسكتت الملكة حينا ، كأنها تفكر وتستعيد ، فاحترمت صمتها الى أن خرجت منه وعلى فمها ابتســامة الراضى بما استعاد من الذكرى

الآية الأولى

فقلت للملكة أستحثها على الكلام :

ـ أضحك الله سنك يا مولاتى !..

ـ انها حقا آية الله التى انطوت فى ذلك الغزو الهكسوسى الذى ثقل على مصرحينا ، حتى نفضته عنها كما ينفض الجواد التراب عن معرفته ...

ـ تشبيه جميل .. فالجواد حيوان رشيق الحركة نبيل، حتى وهو ينفض التراب ...

ـ يا بنية ! لم أستعمل الجواد فى ذلك التشبيه عبثا ، فقد كان أهم عنصر استخدمه الله لاتمام آيته فى تلك الغزوة، وفى حرب الاستقلال ، ثم فى فتح الشرق الى وادى النهرين الأعلى من بعد ذلك ...

ـ وكيف كان ذلك ؟..

ـ لم تكن مصر تعرف قبل غزوة الهكسوس ذلك الحيوان المعروف باسم الحصان ، ولا عجلة الحرب التى يجرها ذلك الحيوان ، الى أن غلب بهما الرعاة مصر علـــى أمرها فملكوا وجهها البحرى حينا من الدهر .. ولكن ذلك الغزو كان تافه الأهمية وان بدا هائلا مروعا ، بالقيـــاس الى شيء لم تظهر له أول الأمر أى أهمية اطلاقا ، ألا وهو دخول الجواد أرض مصر ، وسرعة تأقلمه فيها ، وكثرة نسله وانتشاره فى ربوعها شمالا وجنوبا ، حتى بات الحيوان الأساسى فى وادى النيل ، بعد أن كان الحمار هو ذلك الحيوان .. وتعلم المصريون صناعة العربات أيضا

ـ ما أفطنهم أن يتعلموا سر عدوهم ويحـــذقوه ، فانه لا يفل الحديد الا الحديد !..

ـ لا تحسبيهم تعلموا صناعة العربات قصدا ، بل بتلك الفطرة التى ركبها الله فى الفلاح المصرى أن « يلتقط » كل صنعة بسرعة هائلة ...

ـ صـــــدقت مولاتى ! فهؤلاء فلاحونا الأميون يتعلمون بمجرد المشاهدة ادارة آلات الرى البخارية ، وطرق اصلاحها ، بلا تعليم منظم خاص ... وأما سرعة اتقان جنودنا الاميين لدقائق الآلات الهندسية مثل الرادار ، فحديث سار كل مسار ، وعجب منه كل انسان ...

ـ لقد شاء الله اذن أن يكون الضرر الاكبر ، وهو غــزو البلاد على يد الرعاة ، سببا فى دخول الجواد أرض مصر الى الأبد وفى تعلم المصريين صـــنع عجلة الحرب .. حتى اذا قامت قومتهم للاســـتقلال ، فل الحديد الحـــديد ، وطرد الهكسوس على يد أمراء الصعيد ، فكانت هى النافعة الأولى من تلك الضارة الكبرى ...

ـ صدقت مولاتى ! ما أعجب صنع الله ... ولو اطلعتم

على الغيب لا ترتم الواقع ! ولكن أين هذا مولاتى من حديث الامبراطورية ؟ ..

ـ انه قريب من قريب .. فبعد أن تم طرد الهكسوس ، تعقبهم ملوك مصر الجدد حتى يبعدوهم عن تخوم مصر ... فوجدوا فلسطين أرضا مفتوحة لا خيل فيها ولا رجل على وجه التقريب ، فتوغل جيش مصر على ساحل فينيقيا « لبنان » متعقبين عدوهم العتيد ، حتى تم لهم طردهم بعيدا وراء تلك الربوع ... وبذلك نبتت عند فرعون فكرة « تأمين حدود مصر » ، لأن سيناء وفلسطين لبستا حدودا حصينة بطبيعتها ، فوجب الاستيلاء عليها حتى تؤمن حدود مصر نفسها . فأول فتح فى الشرق كان لغرض دفاعي بعد تلك الغزوة .. ولكنه لم يقف عند هذا ! فقد لمس فرعون تفكك امارات ذلك الشرق وتنابذها وسهولة وقوعها فريسة لغاز آخر يخلف الهكسوس فى الاطماع والبأس ، فقرر فرعون أن يبسط ظله على تلك الامارات ، ويتوسع فى ذلك حتى يكون له ملك عسكرى واسع يحمي ظهر مصر ، ويفتح عليها ينابيع الرزق ... فتعاقبت أجيال من فراعنة غزاة ، أقاموا تلك الامبراطورية العظيمة التى بدأت مطاردة للعدو ، ثم تطورت الى تأمين من الغزو ... ثم استمرأ الفراعنة الفتح وطعمه الحلو ، وما فى الملك العريض من أبهة وزهو ...

صفحة بيضاء

فقلت مستدركة ، أو معقبة :

ـ ولكن السيف كما يقولون يا مولاتى ذو حدين ، فهو اذ ينزف دم العدو وينبت أكاليل الغار فيعقدها على رأس المنتصر ، يستنزف أيضا دم الأمة وأرزاقها ...

فأجابت الملكة وهى تبتسم ابتسامة الكبار حين يردون على ذلاقة صغارهم :

ـ ذلك صحيح ، وهو ككل صحيح يتفاوت فى صوابه ، فليس كل حكم صحيحا « مائة فى المائة » • وهـذا الرأى الذى ذكرته نفسه ليست صحته تامة كاملة

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ ان فتح تلك البلاد لم يستنزف من دم مصر شيئاكثيرا كما تتوهمين ، لان القوى لم تكن متكافئة ، ولان عبـقرية تحتمس الثالث على الخصوص حقنت الدماء وأدنت ثمار النصر بغير ثمن فادح

ـ والمال مولاتى ؟ المال عصب الحيـاة ؟•• هل تتكلف الحملات الحربية الشىء القليل فى نفقات التسليح، والتحصين، والنقل ، والمؤن ، والامداد ؟

ـ بل تتكلف كثيرا ••• ولكن هذا عاد بالخير عـلى ذلك البلد الآمين

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ ان انشـاء جيش كبير دائم ، للفتـح وتأمين ثغور الامبراطورية المترامية كان سببا فى قيـام نهضة صناعية كبرى ، لصنع آلات الحرب والحصـار والنقل ، وللتموين والعمارة اللازمة لاقامة الحصون •فازدهرت صناعة التعدين واستغلال المناجم والمحاجر ، وقامت المصـانع فى بقاع من الوادى مختلفة ، تصب منتجاتها فى « منف » عاصمة الجيش المصرى •• واستتبع ذلك النشاط الصـناعى انتعاشا فى الحياة الاقتصادية وارتفاعا فى مستوى الحياة،زاد بعد الفتح بما تدفق على مصر من موارد البلاد المفتوحة واتاواتها •••

ـ انها لعمرى صفحة بيضاء •••

ـ ولكنها ليست وحدها فى ذلك البيـاض •• فهناك ما هو مثل ذلك أهمية وفضلا على الحياة المصرية والحضارة المصرية •• هناك صفحة جديدة حقا فى تاريخها

ـ وما ذاك ؟ يرحم الله مولاتى !

ـ هذه البلاد التى فتحها فرعون ، من غزة الى أقصى جبل الكرمل من لبنان ، كان سبيل الوصول اليها والعودة منها هو السفن على متن البحر . وبذلك صار لمصر أسطول ، وصارت مصر سيدة البحار فى ذلك الزمان ..

ـ الله أكبر !

ـ وصارت الفلك تنقل الجنود والعتاد ، وتعود بالخيرات من آفاق تلك البـــلاد ، يعمل عليها تجار من الفينيقيين بشعرهم الطويل المرسل وزيهم الملون الغريب.. أما البحارة فمن أهل فينيقيا أيضا ، ولكنهم ليسوا كخاصة القوم ، بل ان شـــعورهم وثيابهم قصيرة ، لانه لا فراغ لديهم للاناقة والتجمل ...

وما ذاق المصريون لذة الفتـــح حتى أوغلوا فى الارض ، وما ذاقوا لذة التجارة على متن البحر حتى أوغلوا بالاسطول متاجرين فى غير سواحل الامبراطورية ، فهـــذه « قبرص » تتصل الاسباب بينها وبين مصر ، فيحمل الاسطول المصرى الى وادى النيل زيتها وفضتها ونحاسها . وهـــذه اقريطش « كريت » يحمل منها الاســـطول المصرى أيضا صناعاتها وخيراتها ، ويحمل اليها خيرات مصر .. واذ نشطت تجارة البحر ، نشطت موانى التجارة ومراسى السفن ، وســـادت البلاد موجات من الرخاء ، وعرفت الوانا من الاســـتهلاك لم تكن تعرفها من قبل .. اســـتهلاكا غذائيا وصناعيا ... وثقافيا أيضا ، فقد اتصلت التجارة بين مصر واليونان ..

فى أعقاب السيف

فقلت مؤمنة :

ـ أجل مولاتى ! لقد عودنا التاريخ أن تســـير فى أعقاب الجيش الفاتح موجات مختلفة ، بعضها من الاوبئة والطواعين

ـ والعياذ بالله ـ وبعضها من الحضارة التى تتبادلها الأمم غالبة ومغلوبة ، وبعضها من الثقافة والتزاوج ، فيكون من ذلك كله خير عميم ، لمستوى النسل ، وتقدم الحضارات ، وانتشار الثقافات والآداب ... كذلك كان من فتوح « ذى القرنين » فى الشرق كله ...

فقاطعتنى الملكة فى شىء من الحدة :

ـ ومن ذو القرنين؟ قبله وقبل قرنيه بقرون ، كان آبائى الميامين ! لقد صنع فتحهم للشرق الأعاجيب ، فانتشرت الثقافة المصرية ، والحضارة المصرية فى كل مكان ، وصارت مصر بعاصمة ملكها طيبة ، وعاصمة جيشها منف ، جامعة يتلقن فيها أبناء العليـة من تلك الأمم أعظم ثقافة وأعرق حضارة فى العالم ... فخطت تلك البلاد خطوات جبـارة فى ركب التمدن والحضارة بفضل الفتح المصرى . فلم تكن مصر وحـدها هى المنتفعة من هذا الفتح المبين ، بل لعل انتفاع الامم المفتوحة كان لا يقل عن انتفاع مصر بحال من الاحوال .. لانها تاجرت مع مصر كما تاجرت مصر معها ، ولم يكن حال مصر كحال الامم المستعمرة فى الوقت الحاضر

وسكتت الملكة ، كأنها اعتقدت انى فهمت ما ترمى اليه بذلك التلميح ، فلا حاجة الى بيان صريح .. فاستزدتها ، فقالت :

ـ ان الدول المستعمرة فى العصر الاخير تحـاول اغراق البلاد المفتوحة بصناعاتها ومتاجرها ، ولا تأخذ منها مثـل ما تعطيها من المنفعة .. فثمت حواجز جمركية ، وقيـود العملة ، وما الى ذلك مما يعين على الاستغلال ، ويوقف تقدم البلاد المحتلة. أما مصرنا يا بنية فلم تعرف الا حرية التجارة، فأفادت كما استفادت ، وحمدت الشعوب المفتوحة لمصر هذا البر وذلك الرخاء الذى أفاءته عليها ...

ـ ولكن أمراء تلك البلاد حريون أن يحنقوا ...

ـ ومن أمراء تلك البلاد ؟ لقد كانوا شيوخ قبيل متنابذ تفرقه الاطماع ودسائس الأمم الكبيرة المجاورةكأمة الحيثيين والميتانى • فوحد فرعون بينهم ، وعلمهم الحرب الحديثة ، وجعلهم جبهة واحدة ، لا يسهل ازدرادها على العدوالمتربص •• وقد كتب أولئك الأمراء بعد موت تحتمس الثالث فى أكثر من مناسبة ، مشيدين بفضله عليهم من هذه الجبهة • فمصر القديمة هى أول من أقام حلف الشرق الأوسط ، أو جامعة الامم العربية بمعنى أصح •••

فقلت :

ـ ما أسعد فرعون أبيك بهذا الملك وهذا الفضل الموروث

ـ أجل يا بنية ! •• لقد ورث امبراطورية مستقرةمشيدة الاركان عالية الصرح • فقدر ان السلام والأمن هما أعظم النعم الانسانية ، فبدأ يستمتع بما يفىء عليه وعلى مصر ذلك الملك العريض المستقر ، فكان هذا الترف الذى لم يشهد العالم القديم له نظيرا ، والذى يشبه بذخ لويس الرابع عشر فى زمانكم الحديث فى دولة الفرنجة •• فن وترف ونعيم مقيم • ولكن الترف كالدسم الكثير ، له مضاعفات تتعب المعدة والكبد والامعاء . فسم الدسم من معدن الدسم وليس دخيلا عليه ••• واذا أصبح المرء أسيرا لترف لا يتحرر منه بل يستمرئه ، تهاوى الى الانحلال ، اذا لم يكن فى الحال، فبعد حين .. سنة الله فى خلقه ...

ـ ولن تجد لسنة الله تبديلا •••



على مائدة الأجداد

حقوق البطون

ومالت الشمس الى الغروب ونحن نتجاذب ذلك الحديث عـــن ملك مصر الغابر ، وما كان لهـا من مكانة لم ينلها الاوائـل والاواخر ، وقد سحرنا ذلك الحديث الســـاحر وأنسانا مرور الوقت ، فقالت الملكة لى وهى تبتسم :

ـ أما لك بطن يا بنية ؟ هـذه ساعة ينبغى أن نرتب لأنفسنا فيها شيئا نأكله .. فما رأيك فى هذا ؟ ..

ـ الرأى رأيك يا مولاتى .. ولـكن أين نأكل ؟ أثمت مطاعم عامة ؟

ـ فى طيبة ولا مراء مطاعم عامة ، لانها حاضرة الدنيا ، لا ينقطع عنها وفود الغرباء من ذوى الحاجات أو ذوى المطامع

ـ اذن نميل الى أحدها ...

ـ كلا .. بل نميـل الى مائدة جدى لأمى ، تويا ، والد الملكة تى ، فانه قد أولم الليلة لمناســبة حفلة الانعام على المخلصين من القواد العظـــام .. فهيا بنا الى قصره ، فهو قريب من قصر فرعون هذا ...

ودخلنا فاذا سور عال ، وباب له عمد كأبواب الهياكل ، وساحة تدخل اليها المركبات يجرها جواد واحد، والسياس يأخذون بأعنة الخيل ، فيرقى المدعوون الدرج القليل الارتفاع الى شرفة يدخلون منها الى قاعة الاستقبال ، يحف بهم منذ أول الدرج عبيد رب الدار وأبناؤه، وقد يخرج هو لاستقبال الاثيرين ..

ولكن الملكة لم تدخل مع الداخلين ، بل قالت لى :

ـ ان الاستقبال لم يبدأ بعد ، وليس هؤلاء الوافدون هم أكبر المدعوين مقاما ·· فتعالى أولا أدخل بك المطابخ ، لترى بعينى رأسك اعداد ذلك الطعام الذى ستتناولينه

خلف القصر ··

فدرنا حول القصر الى بنائه الخلفي ، حيث المطابخ والمخبز ومخزن المؤن وما اليهـا ·· فاذا ثور افريقي مسمن حتى أنه لا يحرك قوائمه الا بصعوبة ، يقوده الرعاة فيسلمونه الى القصابين فى رحبة صغيرة أمام المطبخ ··

فأقبل القصابون الاربعة على فريستهم الكبيرة ، فعقدوا حبلا حول قدمه اليسرى الأمامية ، وقذفوا طرف الحبل من فوق ظهر الثور فتلقفه زميل للقصاب الأول فجذبه حتى أكره الثور على رفع رجله المربوطة عن الارض · وفى هذه اللحظة انقض الاثنان الآخران على الثـور ، فشد أحدهما قرنيه الى الخلف ، وقبض الآخر على ذيله · واجتهد القصاب الاول ـ الذى ربط رجله اليسرى ـ فى رفع رجـل أخرى من قوائمه الخلفية عن الارض · فوقع الثور عـلى الارض ، فاجتمع القصابون على ربط قائمتيه الخلفيتين بالحبـل الى قائمته الاولى التى بدأوا بها ·· وكذلك أضحى الثور عاجزا عن انقاذ رقبته ، التى أنحى عليها أشد الفتيان بأسا ، وكان قد شحذ سكينه التى لا تكبر طول الكف كثيرا فوق حجر صغير معلق فى ثوبه القصير ، فأغمدها فى رقبـة الثور ، ثم تلقى الدم فى وعاء خاص ، فقـدمه الى موظف معين من رجال الدين ، من اختصاصه تشمم الدم لفحصه والتثبت من خلوه من الآفات ···

ثم بدأت بسرعة البرق ، عملية تقطيع أوصـال الذبيح على نسق خاص · فلما فرغنا من ذلك المشهد المثير ، قالت لى الملكة :

ـ هذا هو اللحم المسمن الذى سيطعمه الناس ‥فتعالى الآن الى جانب آخر من المطابخ

ومضيت معها ‥ فاذا طهاة يذبحون من الطير عددا لا حصر له ، بين بط وأوز وحمام وأرانب ‥‥ فقلت وأنا أقلب نظرى فى هذه المجزرة التى تعالت منها الاصوات المتباينة :

ـ هذا بديع ‥ ولكن أما من دجاج ؟

ـ ولماذا لا تسألين أيضا عن الديكة الرومية ؟

ـ وهل تحسبيننى يا مولاتى أجهل أن الديكة الرومية لم تعرف الا بعد كشف أمريكا ؟

ـ فاعلمى اذن أن الدجاج والديكة لم تكن قد عرفت بعد فى عهدنا هذا ، فى الأسرة الثامنة عشرة ‥‥

ـ واأسفاه ‥ ولكن أظن ماء النيل فى عهدكم كان كعهده الآن ؟

ـ ماذا تعنين بهذا الكلام ؟

ـ أعنى أننى أحب السمك كثيرا ، المقلى منه والمشوى والمطبوخ فى أوانى الفخار بفريك القمح ‥‥

ـ ما شاء الله ! فاعلمى اذن أن جدى لأمى كاهن من المدققين ‥ والمدققون من الناس فى زماننا لا يأكلون السمك وان كان سائر الناس يأكلون بعض أنواع السمك دون بعضها الآخر ‥ فليس كل انسان قادرا على أكل اللحم ٠ فمن ذا من العامة والفقراء يستطيع أن يذبح لطعام أهله ثورا ؟ وبهذه المناسبة : «من أى البلاد أنت فى مصر؟»

ـ من الفيوم يا مولاتى !

ـ اذا عرف السبب بطل العجب ! ان أهل الفيوم على عهدنا كانوا صيادى سمك محترفين ‥ والعرق دساس كما ترين ، فها أنت تتشهين السمك !

ـ والخضر يا مولاتى ؟ أى أنواعها سنأكل ؟

ـ انظرى : هذه أكداس من البصل ، والكراث، والفجل، والتوم ، والقناء ، والفول والبطيخ والشمام والخيار ...

ـ أما من خضر مطهو اذن ؟

ـ كلا ! فنحن لم نعرف هذا اللون من الطعام .. ولكنا نعرف اللبن والجبن والزبد ، ونعـــرف من الفاكهة العنب والتين والبلح والجميز والدوم ... ودخـل مع الهكسوس وجيادهم ومركباتهم شجر الرمان والزيتون والتفاح .واذا لم يكفك هذا ، فاعلمى أن ختام المائدة هو شـــهد النحل البرى والخرنوب

ـ نعمة جزيلة ، نسأل الله دوامهـــا ... ولكن كيف سيطهى اللحم والطير ؟

ـ انه السلق على نار فحم نباتى يأتينا من بلاد النوبة ، ثم التحمير بالسمن ودهن الماشية .. كذلك يطهى معظم لحم الثور ، أما المواضع الممتازة فتشوى على أعواد من حديد ، فيكون منها ذلك « الكباب » الذى لازلتم مولعين به أبنـــاء النيل ... كما تشوى الطيور على هذه الطريقة ...

ـ الحمد لله ! هذه أصناف لا أستغربها ...

ـ وصنف آخر لا تستغربينه ان شاء الله .. وهو نوع من اللحم المقدد المملح ، الذى تسمونه البسطرمة ..

ـ أحقا ؟

ـ على وجه التقريب ! فنحن نقدد طيور الماء ونملحها ، ونقدمها على المائدة لونا من المشهيات ...

ـ على بركة الله ! فهذا والله عشاء حافل ...

فى قاعة الاستقبال

وابتسمت الملكة وقالت لى :

ـ أرى قلبك قد اطمأن .. فتعالى اذن ندخل مع المدعوين

الى قاعة الاستقبال لكى ندخـــل معهم بعد ذلك الى قاعة الوليمة ...

واستدرنا الى الباب الأمامى ، فاذا الوجوه من المدعوين قد حضروا ، كل معه زوجه فى أبهى زينة وأغلى ثياب وأبهر حلية ، فى عيونهن الكحل الفاتن ، وعلى وجوههن المساحيق العطرة الفيـــاحة .. واذا مصر هى مصر ، بلد التحيـــات والمجاملات منذ الأزل . فما أكثر عبارات التحية والتبريك

ــ مرحبا ، مرحبا !.. بارك آمون فيك . وشرح صدرك بنوره ، وأطال عمرك . وأسعد مشيبك . وأعطاك الغنى والعافية . وبارك لك فى ولدك ومالك ...

وما الى ذلك من الدعوات الكثيرات المكررة ، تتطاير هنا وهناك ، حتى يلج الضيف قاعة الاستقبال .. فاذا مقاعد من الآبنوس الفاخر ، لها ظهور عالية ، وتستقر على أربع قوائم كل منها يمثل أسدا ، هى كلهـــا تحفة فى الحفر وفن النجارة وفخـــامة المواد الاولية . وتحلى الظهر والذراعين نقوش بديعة للآلهة ، ومناظر الحرب وأمجاد فرعون ...

وهذه مقاعد العلية من المدعوين . أما من يليهم فيجلسون على مقاعد بغير أذرع ، فى شـــكل علامة × ، تطوى وتفتح ككراسى الشاطىء عندنا ، ولكن أخشابها ونقوشها من أجمل وأبدع ما يكون ، وتنتهى قوائمها فى الغالب برؤوس البط ومناقيرها

وعلى الارض حشايا من الدمقس والكتان ، يجلس فوقها الشبان الذين لم يتســـع لهم مكان للجلوس على الكراسى والمقاعد

وكان رب البيت فى الصدر ، والى جانبه زوجه ، وتحت قدميه كلبه مستكينا ، وقد أغمض عينا وفتح الاخرى عـــلى مألوف الكلاب حين تغفو

وما استقر المجلس بالجمع ، وفرغ معين التحايا ، حتى

أقبل الخدم والعبيد ، أخلاطا من أمم الارض ، لانهم من أسرى الحرب فى المشرق والجنوب ، يحمل كل منهم طستا وأبريقا به ماء ، لكى يغسل الضيوف أيديهم •• فان غسل الأيدى قبل الطعام وبعده تقليد مقدس عند المصريين القدماء

فلما انتهى هـذا الواجب ، خف القوم الى قاعة المائدة ، حيث أعدت الوليمة الكبرى •••

هنيئا مريئا ••

وقاعة المائدة فسيحة على جدرانها وعمدها صور زاهية الألوان لمناظر الطبيعة وأنواع الطير والحيوان، أبدع الفنانون رسمها متاعا للعين ونزهة للخاطر ، بعد أن كانت رسـوم القدامى مقيدة بطقوس الدين ومناظر الأساطير ••

أما الموائد فصغيرة كثـيرة ، منتشرة فى أرجاء المكان ، وحولها المقـاعد بين ذى الذراعين وغير ذوات أذرع ••• وبالقرب منها رفوف عليها آنية الزهر ، وسـلال الفاكهة ، وأطباق اللحم وقدور الشراب ونوافل البقل والخضر •• فلم يعرف القدامى تلك الموائد الكبيرة الحجم، وانما كانت المائدة يجلس اليها اثنان أو ثلاثة من الطاعمين •••

أما الأوانى الصغيرة فمن خزف جميل النقش ، وبعض الصحاف من الفضة المزخرفة • أما القدور فمن فخار أو من حجر منحوت ••• وثمت أيضا أوان منقوشة من المعدن من صنع سوريا واقريطش وجزر الاغريق

وقدور الشراب فيها « مريسة » الشعير أو البلح ، وهى نوع من البوظة مصفى، أو اذا شئت فهى البيرة التى يعرفها أبناء هـذا الجيـل •• وذلك هو الشراب المصرى الصميم القديم • ولكن هناك كذلك بنت الكرم من معتق النبيذ ، هدية أوزيريس الى الناس • ولكن النبيذ الحلو، الذى يشبه

فى حلاوته الرحيق من شهد النحل هو النوع المحبوب لديهم

وجلس الطاعمون حـول الموائد ، والطعام كله أمامهم ، لا يقدم طبقا طبقا كما يفعل أهل الغرب، فكل انسان مفوض أن يأكل ما يشاء كيفما يشاء وحينما يشاء

وتحرك فى حلقى سؤال ، وأنا آخذ من طبق شـيئا من الشواء آكله بأصابعى ، فلا أدوات للمائدة هناك ، متلذذة بهذا الطعـــام الذى لايرانى أحد وهو ينساب الى حلقى ، فقلت للملكة :

ـ ان الشواء متقن، ولكن أين التوابل ؟ وان الملح لكثير ..

ـ انه عوض عن تلك التوابل والافاويه ... فكلى هنيئا كما يأكلون !

ـ والله انى لأرى الغبطة على وجوه القوم حقا ... أهى المجاملة ؟

ـ كلا ! فالمصرى منذ القدم لا يسعد بشىء كما يسـعد بالاجتماع مع نفر من الاصدقاء حـــول مائدة حافلة بما لذ وطاب ...

ـ هذا تقليد جميل احتفظنا به .. ولكن يدهشنى حقا أن أرى اختلاط الجنسين سائدا لديكم الى هذا الحد العجيب

ـ وفيم العجب ؟ لم نكن أمة تعرف الحجاب ، وان كانت ولائم من سبقونا تجعل موائد للرجال وموائد للنساء .ومن آداب الاجتماع ألا يختلس الرجـل النظر الى حيث يجلس النساء فى بيت داعيه .. أما فى زمن أبى ، فها أنت ترين أن ذلك الفاصل قد زال ، فالناس أميل الى التحرر ، ولكن الاختلاط ليس تاما ... فكل رجل صاحب الحق فى الجلوس مع زوجته الى مائدة واحدة ... ولا تجلس زوجته مع قوم آخرين الا باذنه ... ولكن انظرى بربك !

ـ الله أكبر ! ما هذه الفتنة كلها ؟!

فقد رأيت الجوارى يدخلن فى ثياب تظهر أكثر مما تخفى، ولا تخفي الا لتثير الفتنة بما تخفى، ينقلن الطعام من الرفوف الى الموائد ، ويبخرن بالعود بين الجالسين ، ويوزعن الزهور والرياحين في ابتسام جميل ، حتى أصبح فى كل يد عود من الريحان أو الزنبق •• وعلى كل رأس اكليل من الزهر ناصع البياض •••

وكان الشراب قد لعب بالرؤوس، فبدأت النكات تتطاير، والضحك يعلو كالرعد القاصف ، والقدود تتمايل ، والخدود مشتعلة بحرارة الشراب والسرور •• فبدأ الجوارى الحسان يعزفن على القيثارة ، وينفخن فى الابواق ، ويرقصن على حدائها العذب •••

ثم ارتفع على الارغول صوت حنون يغنى شيئا هو أقرب الاشياء الى موالنا الحديث :

« لب نداء قلبك ما حييت ••

« وعطر بالطيب رأسك •••

« والبس أفخر الثياب من رفيع الكتان •••

« ولب نداء قلبك ما بقيت على الارض ••

« ولا تحرم نفسك من لذة •••

« فلكل لذة أوان •••

« ولا يرجع ما فات •••

« هيهات هيهات •••

وارتفع من السامعين الثملين اعصار عاصف من «الآهات» المعهودة حتى هذه الايام عند « الانسجام » ، وتحدرت دموع آخرين ، وسكت صوت المغنى ، لكى يفسح المجال لغناء العيون ••

وهل غناء العيون سوى الرقص الموقع على الانغام ؟

ان الراقصات شـــبه عاريات ، ولكن الرقص لا يشبه رقصنا « البلدى » ، بل هو أشبه بالرقص الهندى : تعبير، وشعر ، ورموز تخاطب الحس والنفس بما لا تنطق به اللغة فليس للذة البهيمية نصيب فى ذلك الاداء الجميل

أما الاجسام .. فلا فضول من لحم وشحم ، وانما هى الرشاقة على آخر طراز ، بغير مشد ، وبغير افتعال ...

واندفع الناس يحيون الراقصات بالشراب ، حتى بدأ بعضهم يفقد وعيه ..

وأخيرا ، بدأ الغثيان والقىء ... فاستولى على الفزع ، فابتسمت الملكة نفرتيتى وقالت لى :

ــ هذه أكبر تحية لصاحب المأدبة ... وأعظم شهادة له بالكرم ووفرة الشراب وجودته ...

ــ رباه ! ان هذهالعادة ليس أسوأ منها فىأيامنا الراهنة الا تجشؤ الضيف فى بعض بلاد الريف فى نهاية الطعام ، لكى يعلن لصـــاحب الدار أنه أكل حتى امتلأ وفاض الاناء بما فيه ..

واقبلت الجوارى الحسان ، والعبيد الوسيمون ، يرفعون آثار ذلك « الشكر » لنعمة رب القصر ، ويمسحون الارض والموائد من تلك الشوائب ... لكى تســـتمر المأدبة فى صخبها ونشوتها ...

فقلت للملكة :

ــ مولاتى ! هيا بنا..فهذا حسبى من مائدة الاجداد...

المرأة والبيت

بناء •• وبناء ••

وعلى طنف من القصر ، بعيدا عن الصخب والضجيج ، جلسنا نتملى جمال الليل الساكن الذى اشتهرت به سماء مصر الصافية ، البعيدة الغور ، حين ترصعها النجوم وقد غرب القمر عن الانظار •••

وقرع سمعنا من بعيد ، من فلك يجرى فوق النيل السعيد ، صوت ملاح من أبناء الصعيد ، يتغنى بالهوى والجوى والحبيب النازح الذى شط به المزار •••

« شعرها كالليل الحالك ، أو هو أشد منه سوادا ••

« وأشد سوادا من شعرها الفاحم انسان عينها الواسع

« وشفتاها أشد احمرارا من العقيق الاحمر

« ورضابهما أشهى من جنى البلح الرطيب ••

« وثدياها تحفتان أحكم وضعهما فوق صدرها الناعم

« هى منى القلب •• وأنا لبعدها مضنى حزين ••

« كم أتمنى أن ألزم الفراش عليلا

« كيما تزورنى الحبيبة وتضع يدها على جبينى •••

« آه كم أنا عاشق •••

« وآه كم أنا مدنف فى هواها ••• »

وكنت أرهف أذني لهذا الحنين الساذج الذى ينطلق من أعماق الفطرة الريفية المصرية •• فلما سكن الصوت ، وانقطع صداه ، التفت الى الملكة متعجبة وقلت :

ـ كأن الزمان لم يغير فى حياة هذا البلد الأمين منذ

آلاف السنين ، فالآهة الحزينة ، والحنين الى الحبيب، وشكوى الهجر والدلال ، هى هى لا تزال طابع مصر بعد كل هـذه الاجيال ٠٠٠

فهزت الملكة رأسها هزة خفيفة ، وقالت :

ـ هو ما تقولين ، فمصر من قديم بلد الحنين والأنين ٠٠٠ وهى أيضا بلد البناء بأكثر من معنى واحد ٠٠٠

ـ رعى الله مولاتى ! هلا أبانت عما أجملت ؟

ـ انى أعنى المعنى المزدوج للبناء ، فالبناء هو التشييد ورفع العماد بعد ارساء الاوتاد ٠٠ والبناء هو الزواج لاقامة الأسرة وانجاب الاولاد ٠ والمصرى مغرم منذ القديم بهـذا البناء وذاك البناء على السواء ٠٠ فنحن شعب يقدس الأسرة، ويقدس العمارة واقامة بيوت الحيـاة والموت جميعا ، حتى لقـد كان اللفظ الذى يدل فى اللغة المصرية القديمة على اقامة البيت واللفظ الذى يدل على التأهل بزوجة واحدا بلا اختلاف

وحواء ؟

فقلت للملكة عند هذا :

ـ ذلك جميل يا مولاتى ٠ ولكن ما كان دور حواء فى ذلك البناء ؟ وهل هى تشارك فيه بالرغبة الصـادقة والارادة المطلقة ، أم هى سلعة السوق وأثاث البيت ، لا راى لها ولا صوت ؟

ـ بل لها رأى ولها صـوت ، وان لم يكن ذلك حالها فى جميع الاحيان ، فما كل فتى من ذوى القلوب ، وما كل فتاة من ذوات الصبوة وأهل الهوى ٠٠٠ فرأى الفتاة فى بعلها راى مسموع ، وصـوتها أيضا ليس أقل دويا واسترعاء للاسماع من صوت آدم فى هذا المضمار ٠٠٠ فتعـالى معى

نحث الخطى الى شاطىء النهر المقدس ، حيث يبكر العذارى للسقيا ...

ومضينا « والشمس فى خدر امها ، والطل لم يجر ذائبه» ، حتى بلغنا حى السوقة ، وتجاوزناه الى أرباض المدينة من أطراف الريف ، فاذا صبايا يحثثن الخطى الى النيل ، وعلى رؤوسهن الجرار ... والمآزر السود ، فهتفت :

ــ هذه بردة الصعيد ، وتلك جراره لم تتبدل

فقالت الملكة :

ــ وقلوب أبنائه وبناته أيضا لم تزل على عهدها الأول..

ثم ارتفع حداء لطيف النغم فى سكون السحر :

« أخى ... قد سبى قلبى صوته العميق ...

« آه ! كم صوته عريض هذا الأخ الوسيم

« الذى تجاور داره دار أمى ..

« ليتنى معه فى داره !..

« ولكن لأتركن لأمى تمهيد هذا الوصال !

« بل يا ويح لى ! انه المسئول أن يطلبنى ...

« وأنا بعد هذا حرية أن أستجيب ..

« فتعال يا أخى الى أمى واطلبنى ...

« كى أكون لك على شريعة الآلهة ..

« واتبعك الى الأبد ...

« آه يا أخى ! يا له من حلم ...

« فهلا اقتربت منى كى أشهد جمالك ..

« ان أبى سيسر بك كثيرا ...

« لأن وسامتك وفراهتك تشرحان جميع الصدور

« والاجماع على اطرائك معقود يا أخى الحبيب .. »

وسكن الصوت ، وغرد فى الأفق البعيد طائر مبكر ، أو لعله الكروان ... سلطان المغردين فى سماء وادى النيل ... فقالت الملكة بعد صمت قليل ، كأنها تستمرىء ذلك الصوت الحنون :

ــ ان الأخ والأخت كنية الحبيب والحبيبة فى مصر القديمة

ولم تكد تتم عبارتها ، حتى انبرى صوت فتاة أخرى من سرب العذارى ، يتغنى فى صوت رخيم بأغنية أخرى من أغنيات الهوى والشباب والأمل الحلو :

« مررت بالدار ، دار هذا الحبيب ..
« فألفيت بابه مفتوحا
« وكان حبيبى واقفا فى الرحبة
« ومن حوله أمه وأبوه وأخوته وشقيقاته
« وحسنه الباهر يأسر كل عابرة سبيل !
« فأدبه واناقته ليس لهما مثيل
« بين أبناء الخاصة من أهل الظرف
« ورشقنى « أخى الحبيب » بنظرة ...
« يا لها من نظرة !
« فاختلج جسمى كله بالفرحة الطاغية
« وتمتعت وحدى بهذه النشوة الحلوة ...
« لأننى كنت وحدى حين عبرت الطريق
« أمام باب الأخ الحبيب ..
« لله كم انتشيت بتلك النظرة !
« فليت أمك يا أخى عرفت مكنون قلبى
« اذن لحثت الخطى الى دار أمى ..

« وطلبت اليها قرب النسب ..
« فأذنى أينها الالاهة التى ترعى المحبين
« وألهمى أمه هذا العمل الصالح
« حتى يتسنى لى عندما أرى أخى الحبيب
« ان أعدو نحوه أتشمم ريحه العطر
« ولا أمر هكذا بعيدا فى فرحة مكتومة
« هى أشبه الاشياء بخلسة المحروم ! »

وتندت عيناى بالدموع لهذا النشيد الساذج الصادق ، فقالت لى الملكة وهى تبتسم :

ـ ان الشباب جميل كالاحلام ...

ـ أجل ، وفارغ سريع الزوال كالاحلام أيضا ، ينخدع بها الحالمون ...

فقطبت الملكة حاجبيها وقالت :

ـ صدقت لو أن الشيخوخة أكثر دواما وثباتا وحقيقة من هذا الشباب الذى تزعمينه فارغا سريع الزوال ! كلا يا بنية ! لا عيب فى الشباب الا أن يطيش عن المعالى ويشغل بغرور القوة الحيوانية فيه واشباع نهمه الى اللذات... أما الشباب فحبذا هو ، وانه لعمرى بمنزلة الربيع من الزمان ، لايعدله فى العمر زمان ... وانما ينعى الشيوخ على الشباب الجهل لا قوة الاحساس والحيوية ... فهى الرغبة فى جمع شيئين متباعدين : القوة وحكمة المراس ...

فقلت للملكة :

ـ لقد سمعت صوت حواء ، تترجم عن قلبها .. ولكن هل للقلوب حقوق فى هذا العهد السحيق ؟

ـ أجل ! فكثيرا ما يحترم الآباء رغبات البنات والبنين ، اذا عرفوا أنهم متحابون ، فلا يكرهونهم على ما لا يريدون

الا أن يكون مانع من موانع التقاليد وأوضاع العرف

ـ وبعد الزواج يا مولاتى ، هل تخفت أصــوات الهوى ونشيده الحلو النغمات ، ويبطل ذلك الغزل الرقيق ليحل محله الواقع العملى العارى عن الطلاء والتزاويق ؟٠٠

ـ لا ! فالزوج العاشق يظل ينادى زوجته « يا أختاه »، وهى تناديه أيضا « أخى » ٠٠٠ ويظل التعاطف الجميـــل بينهما سائدا ٠٠٠

ـ لعلها مرادفات اللغة ، فهل كلمة أخت تعنى الزوجة ، وكلمة أخ تعنى الزوج ؟

ـ كلا ! فاذا كانت قضية فى المحكمة لم يستعمل هذان اللفظـــان بذلك المدلول التدليلى ، وانما يقال زوج ويقال زوجة (« هاى » و « هيميت »)

مراسم الزواج

فقلت للملكة :

ـ ومراسم الزواج يا مولاتى ؟

ـ أبسط مايكون.. وحسب اتفاق الآل من الطرفين ، وأهم ما فيها « زفة العرس » من بيت الفتاة الى بيت الفتى، ومن حولها الأهل والصحب يحملون الهدايا والألطاف ٠ فليس فى حياة المرأة الا موكبان حافلان : موكب الزفافالى الزوج ، وموكب الزفاف الى القبر ٠ وفى كليهما يحمـــل الأهل والأصحاب الهـــدايا والتحايا ، زادا للعروس فى دنياها أو آخراها

ـ أما من عقد مكتوب ؟٠٠

ـ هناك ســـجل لعلية القوم من آل فرعون فى قصره ، يكتب الكتبة فيه ذلك الحدث العظيم ، حفظا للانســـاب من الاختلاط والنسيان ٠٠٠

ـ أما من بركة من الكهان ؟

ـ أجل ! يمر العروسان وأهلوهما بالمعبد ، فيقدمان القرابين طلبا لليمن والخصب من آلهة النسل الخصيب...

داء قديم

فقلت للملكة فى استبشار :

ـ أكاد أجزم من هذا الذى سمعت وعرفت أن المرأة كانت عالية المكانة ، تتمتع باحترام كاف ، وللرجل فيها رأى حسن

ـ لا تجزمي ! فسوء رأى الرجال ، ولاسيما الكهول منهم ، فى المرأة داء قديم. فالادب الفرعونى لا يترفق بالمرأة كل الترفق.. فهى موصوفة فيه بالتفاهة ، والنزق ، وخفة العقل ، وسرعة التحول ، وتقلب الاهواء . يخدعها ظاهر الأمر ، ولا تحتفظ فى صدرها بسر .. تحب الزهو ، وتضحى فى سبيله بأثمن الذخر ، ولا تبالى فى سبيل شهوة الساعة بالسمعة والطهر .. تكذب ارتجالا ، وتنافق على السليقة، وتحب الخيانة ولو استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير

فقلت للملكة :

ـ صدقت مولاتى ، انه الداء القديم ... ولكنى أرى المسئولية فيه عليكم معشر الاجداد لا علينا ، فقد رسخ فى نفوس المحدثين بالعادة الموروثة ذلك الرأى القبيح فى المرأة ، والناس على ما وجدوا عليه آباءهم من قبل

ـ أصبت ! ففى آدابنا اسطورة مأثورة ، أحسبها لا تزال قائمة فى الاسماع هى بعينها أو نظائر لها من قبيلها ومعدنها

ـ وما ذاك يا مولاتى ؟

ـ قصة « بيتاوو » الفتى العف ، وامرأة أخيه الكبيرذات العرض المثلوم والعفة الرقيقة والمكر السىء

ـ اسمعينيها مولاتي مشكورة ••.

ـ زعموا أنه كان فيما مضى من الزمان اخوان متحابان ، ربى أكبرهما أخاه اليتيم ، واسمه « بيتاوو » ، حتى كبر وصار فتى فارها • وحان أوان انحســـار ماء الفيضان عن الارض ، وآن أن يبذر فيها الحب ، فمضى الاخوان الى الحقل• ولكن الحب نفد منهما ، فعاد الأخ الاصغر بيتاوو الى الدار، فحمل على كتفه غرارة ثقيلة من البذور كأنها شيء خفيف الحمل ، فسر منظره قلب زوج أخيه ، وتحركت في أعماقها الشهوة الخبيثة ، وطغت عليها تلك الرغبة الجامحة ، فقالت له : « دع هذه الغرارة عن ظهرك يا بيتاوو ، وتعال اضطجع معي ساعة أو بعض ساعة ! تعال ، وسأحيك لك ثيابا جميلة» . فأبى الفتى أن يجيبها الى ما طلبت ، وقال لها : « انك حرام على كظهر أمي •• وزوجك مني بمنزلة أبي •• فلا تذكرى هذا لي مرة أخرى ، وسأكتمه أنا عن كل انسان » . وتركها خجلى محنقة ، ومضى الى الحقل • فاتهمته عند أخيه الكبير بأنه راودها عن نفسها فاستعصت عليه ، وكان هذا الأخ احمق فقتل أخاه العف •••

ـ رباه ! كأني بهذه الاسطورة وقد سمعتها في صياغة أخرى ، وان كان الجوهر واحدا •••

ـ ربما ••• ولكن للاسطورة بقية !

ـ وما هي يا مولاتي ؟

ـ لقد قتل بيتاوو مظلوما ، فبعثته الآلهة ، فعاش في القفار بعيدا عن النساء وكيدهن ••• فكفاه ما لقي من ذلك في حياته الاولى ، فرقت الآلهة لوحدته وخلقت له امرأة شارك كل اله في خلق بضعة منها ، فجـــاءت آية في كل شيء ••ولكنها امرأة بعد كل شيء ! فسرعان ما خانته خيانة فاحشة بعد أن أوسعته عصيانا وشكاسة ، فتركها وتمنى على الآلهة فجعلته ثورا لينجو من تعقبها وكيدها • وكانت

هى قد وصلت بالجمال والدهاء الى سرير فرعون ، فجعلت فى ساعات الصفو تغريه أن يذبح ذلك الثور الجميل ! فتمنى على الله أن يحيله شـــجرة ، فسعت جهدها أن نجتث تلك الشجرة امعانا منها فى التنكيل به !٠٠

ــ يالها من اسطورة !..

ــ وهى الى هذا صورة صادقة لقيمة المرأة فى نظر المصرى القديم ، اذا ارتفع عن عينيه نقاب العشق الجارف ٠ فالمرأة مجتمع الرذائل ، ولا وفاء ولا أريحية الا فى الرجل ٠٠٠

ــ لاحول ولا قوة الا بالله !..

ــ ان القلة الفاسدة من النساء هى سبب هـــذا الرأى القبيح فى المرأة المصرية ٠ فالزنا كان ولا يزال من أقبـــح العيوب ، وعقابه عند الفراعنة القتل والقاء الجثة للكلاب ، حتى لايتسنى لها بعث جديد فى الحياة الاخرى ٠٠٠ أما المرأة الفاضلة ، فتاريخنا حافل بالتغنى بها وتمجيدها ٠٠ وكم من قبر شيده أرمل لزوجته المتوفاة وسجل على جدرانه حزنه العميق عليها وتعلقه بها ٠٠٠ فليس فى الفراعنة ذلك الحياء الذى يذكره الشاعر العربى جرير بن الخطفى فى رثاء زوجته :

لولا الحيـــاء لهاجنى استعبار

ولزرت قبرك ، والحبيب يزار ٠٠٠

فمن المصريين القدامى من كتب عن نفسه انه ظل ثمانية اشهر لايذوق النوم والطعـــام الا كارها لأن زوجته كانت مريضة ، وكان هو مضطرا لمرافقة فرعون فى سفره البعيد ، حتى اذا عاد ووجدها ماتت ألقى بوجهه على الارض فمرغه فى التراب أمام قبرها جزعا على فراقها ٠٠٠

ــ أكرم به من وفاء ٠٠ ولكن هل كان الفراعنة على سنة التعدد ؟

ـ ملوكهم أجل ••• أما النـــاس فيندر أن يجمعوا بين أكثر من زوجة واحدة ، وان كان ذلك فى ذاته ليس محرما تمام التحريم

أكبادنا على الارض

فقلت للملكة :

ـ والاولاد يا مولاتى ؟

ـ المصرى هو هو •• مغـــرم بكثرة الولد ، يعزه ويدلله ويزهو به ••• فهو يأخذ ابنه الطفل معه فى المحـــافل ، ويصحبه فى عمله مزهوا به •••

ـ صـــدقت مولاتى !•• فكم من بائع خضر جائل ، أو سائق عربة نقل يجرها حصـــان أو بغل ، يصحب ولده الطفل ويجلسه الى جواره ، ويجعل فى يديه الصـــغيرتين عنان دابته •••

ـ ذلك يا بنية شأن الفلاح فى الدنيا قاطبة ••• فالولد هو امتداد الأب فى الدنيا ، وأمله فى التغلب على العـــدم والموت والنسيان • وليس فى الدنيا ما هو أشرح للصدر من منظر راع عجوز وحفيده الى جواره ، يرفع الجرة الى فمه ليسقيه اذا ظمىء ••• ولأن الابن امتداد للحياة ، ووارث للعمل والحقل والاسم ،كانت الفرحة بالذكر أشد من الفرحة بالانثى عند الميلاد •• فالولد هو الذى يعنى بدفن أبيـــه ، وبصيانة قبره والسهر على راحته فى الحيـــاة الاخرى •• ولكن ليس معنى هذا ان البنت كانت منبوذة • كلا ! فهى ريحانة البيت ، وسترين أى مكانة كانت لها فى الأسرة على عهد ملكى وزوجى اخناتون •••

ـ لقد كاد النهار يطلع يا مولاتى ، فهلا دخلنا القصر ، لنشهد يوما من أيام الحريم فى قصر أبيك العظيم •••

ـ انه لرأى وجيه ••• فهيا ••


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حريم فرعون

محراب حواء ..

قالت الأميرة ونحن نهم بدخول جناح الحريم فى قصر امنحتب الثالث والدها ، عزيز مصر وفرعونها :

ـ سنبدأ يا بنيتى بمحراب حواء ...

ـ محراب حواء ؟..وهل لها محراب يختلف عن محراب الرجل فى عصر فرعون ؟

ـ أجل ، وفى كل عصر .. فمحراب حواء يا بنية الذى تستقبله اذا طلع الصبح ، وتستقبله اذا جاء المساء ، هو ديوان زينتها وزخرفها وحليها ...

ودخلنا ذلك الديوان ، أو ذلك المحراب ، فاذا سيدة ممشوقة القوام ، بيضاء البشرة فى حمرة ، وقد جلست فى مقعد ذى ذراعين ، له ظهر عال ، وفى يدها « مرآتها » ، على هيئة قرص من الفضة المصقولة ، ولها يد من الآبنوس المطعم بالذهب فى صورة أعواد البردى ...

وأما الوصيفة المكلفة بالتجميل فمنهمكة فى جدل غدائر رفيعة من شعر سيدتها القصير ، كما هو معهود فى شعر نساء هذا الجيل ، وقد رشقت الشعر الذى لم تضفره بعد بدبوس من العاج ..

وذلك عمل يطول ، ويلزم له الكثير من الأناة والصبر ، وهو أطول على السيدة التى لا حيلة لديها فى هذا الانتظار من قراءة مثلا ... ولهذا رأينا فتاة تدخل فتصب لها كأسا من نبيذ ، تحسوه السيدة فى تلذذ ، ثم تأخذ الفتاة فى الغناء والعزف لتدخل السرور على سيدتها

وأقبلت بعد لحظة عاملة الأظافر ، فجعلت تصقل أظافر القدمين وأظافر اليدين ، ثم طلتها بدهان يشبه مثيله من ادهنة الاظافر فى هذا العصر ...

فلما فرغت الحلاقة من تصفيف الشعر ، انثنت نحو الوجه تدلكه بالعطور المختلفة والزيوت ، من آنية من المرمر الملون مختلفة الأشكال ... ثم أخذت شيئا من الكحل فى مرود فكحلت عينى سيدتها ، وجعلت لهما ذلك الشكل اللوزى المأثور

وعندئذ انتهت مهمة الحلاقة .. فانحنت بين يدى مولاتها، وتركت المكان للوصيفات لينتقين للسيدة ملابسها وحليها ذلك النهار ... فبدأن يضمخن جسمها وصدرها وذراعيها على وجه الخصوص بعطر عريق الطيوب . ولم أملك نفسى أن أصيح :

ــ يا له من عطر !

فقالت الملكة :

ــ وهل أدهشك أمر العطر وحده ؟.. انظرى الى القوارير

فنظرت ، وفغرت فمى :

ــ رباه ! انها من زجاج ملون !

ــ أجل ! فقد عرفنا الزجاج الملون قبل العالم الغربى بآلاف السنين .. وصنعنا منه هذه التحف الغوالى . والآن انظرى مغرفة الطيب هذه

ونظرت ، فاذا ملعقة من خشب ثمين ، مقبضها على هيئة أعواد الزهر، وعليها غطاء اذا انطبق غدت مثل برعم الوردة، واذا انفرج كانت أشبه بزهرة متفتحة ... فلم أملك نفسى أن أهتف مبهورة بهذا الابداع :

ــ تبارك الله فيما خلق !

ــ والآن انظرى ! هذا شفوف من رقيق الكتان ، يكاد لا يرى ، ولكنه متين الى أقصى حد ...

ولبست السيدة هذا القميص الشفاف ، ومن فوقه ثوب كثير التمريجات ناصع البياض شفاف كذلك ، ينعقد على الثدي الأيسر ، كاشفا عن الثدي الأيمن ، مفتوحا مما دون الخاصرة الى أسفل حتى القدمين .

وبعد ذلك حل دور المشرفات على الحلى والجوهر ، فألبسن السيدة أساور فى الذراعين والمعصمين ، وخواتم ثقالا فى أصابع اليدين ... ثم زين الشعر بأمشاط مرصعة باللؤلؤ والياقوت ، وحلين الرقبة بالقلائد المصنوعة من ذهب النوبة

حتى اذا انتهت الوصيفات من ذلك ، على عزف القيان وغنائهن ، رجعت السيدة النظر فى المرآة ، حتى رضيت عن نفسها ، فصرفت الوصيفات باشارة من رأسها ...

فقلت للملكة :

ــ من السيدة ؟

ــ انها بنت ملك ، وزوج فرعون .. انها بنت صاحب النهرين . هى « جيلوخيبا » بنت « دوشراطا » ملك الفراتين من أقصى الشرق ...

ــ ليت شعرى ، أين أقصى شرقكم من أقصى شرقنا الآن !؟

ــ صدقت .. ولكن أى خير فى ترامى الآماد اذا كثرت بها الاجقاد ، وشقى باتساعها العباد ؟ ما علينا !.. أتدرين بكم جارية زفت هذه الزوجة الأثيرة الى فرعون ؟ ثلاثمائة وسبع عشرة جارية من أجمل نساء المشرق كافة ... كلهن صرن حظايا يتداولهن فراش فرعون مع الحظايا الأخر والزوجات بنات الأسر ...

الملكة العظمى

فقلت وأنا مبهوتة مذعورة :

ــ وأمك الملكة تى ، ما مكانها من ذلك الحشد الهائل من الاناث ؟.. لاعجب أن تضيع بينهن ويضيع أثرها ...



الملكة ((تى)) والدة نفرتيتى

ـ لا وأبيك ! لم تضع مكانتها ولم يهدر قدرها !٠٠ لقد بنى بها وهو بعد فتى حديث عهد بعرش لم يصل اليه الا بفتوى الكهان وأسطورة ولادته لآمون كبير الأرباب ٠٠ تخيرها قلبه من بنات هـذا الشعب ، مصرية لا شك فى مصريتها ، من أب كاهن ، وأم من سلالة كهان٠٠٠فرفعهما وأعلى شأنهما ، وجعل لها المقام الأول فوق هـذا الوادى المقدس

ـ لقد أشاع قوم أن « تى » من بنات ملوك المشرق ، مما يلى الفراتين ٠٠٠

ـ كذبوا وما صدقوا ٠٠ فهى مصرية خالصة المصرية٠٠

ـ ولكن هل تسنى لابنة الشـعب أن تتكيف بحالتها الجديدة ، فتصير أهلا لهذا المقام الذى لايدانيه مقام ؟٠٠

ـ عجبا لنفوس بنى الانسان ! ان من بنات الشعب من أهلهن القدر للملك وهيبته وسماحته ٠٠ وان من بنات ذوى التيجان من ترينهن فتحسبينهن ـ مظهرا وشارة وحديثا ـ من أعم العامة ٠٠ وليس هذا شيئا نادرا فى أى عصر من عصور التاريخ ٠٠

ـ هذا حق يا مولاتى ٠٠ وقد شهدنا مصداقه فى كثير مما ترامى الى سمعنا فى هذا العصر الأخير ٠٠٠

ـ يضاف الى هـذا أن « تى » وهبت من جمال الروح ورجاحة العقل ونفاذ النظرة فى كل أمر ، ما جعلها كاملة السيطرة عـلى ذلك الزوج العجيب ٠ فهى عنـده ريحانة القلب،ونزهة العقل والخاطر ، وميناؤه اذا عصفت العواصف أو أصابه السأم من التجوال فى بحار الملذات ٠ فلم تكن كضراتها متاع جسد وعليقة غريزة ٠٠٠ فالغريزة عمياء ، والجسد لا يميز الخبيث من الطيب ٠ لهذا كثر تجوال أبى لأنه كان رجلا منهوم الغريزة ؛ حتى قيل عنه انه رجـل

لايمل النساء . ولعمرى انه ليس فى الآراء راى اخطأ او أفسد من هذا الرأى البدائى !

ـ وى ! ٠٠ آلاف النساء يملكهن ، ولا يقال انه رجل لا يمل النساء ؟ ٠ ٠

ـ نعم ! فالذى يتنقل بين الاشياء من جنس واحد ، ولا يستقر عند واحد منها قط ، رجل ملول لهذه الاشياء، يبحث أبدا عن شيء منها لا يمله ولا يضيق به ٠٠ ولكنه لا يجده أبدا !

ـ يا له من تأويل !

ـ أما أمى الملكة العظمى «تى» ، فلم تكن ضمن « مقولة » هذا الحشد من الاناث . فهى وحدها كانت « انسانا » . كانت واحة قلب فرعون لا حان خمره ولا ماخور تبذله ٠٠ لهذا وقف عندها وأخلد اليها ٠ ولكنها لم تعصمه بهذا الاخلاد والاطمئنان المستقر عن طلب « الاناث » طلبا لايفتر. لانها لا تغنى عنهن ، كما لايغنين عنها !

ـ يا له من تحليل ٠٠ أو تعليل ٠٠٠

ـ بل هو علم اليقين ٠٠ فما رأيت أمى محزونة قط لما ترى من ولع أبى بالأناث ، فما كانت تراهن مثلها ولا ترى نفسها مثلهن ٠ وكانت تدرك أن الفارق بينها وبينهن فى الفطرة وفى وجدان أبى فرعون واضح راسخ ٠٠ فلم تغر، وربما كانت عونا له على بعض ما ينشده من لذة فى هذا الميدان توكيدا لترفعها عن منافستهن ، وعلوها عن دركهن مهما علا نسبهن واستطال ، وفيهن بنات الملوك والأمراء ٠ أما أبى ، فكان توكيده لهذا المعنى سافرا واضحا ، فما بنى ببنت صاحب النهرين وباخته من قبلها الا سجل فى وثيقة ذلك الزواج وتذكاره الرسمى ، مكانة تى ومقامها الاسمى ، وانها كانت حاضرة على رأس الحفل ٠ وسجل

كذلك حضــــور والديها الكريمين ، ليعلم من لايعلم ان اى زواج لن يبلغ زواجه من تى ، وان صلته بهـا أرقى من كل صلة يعقدها ، وان « تى » هى الجوهر البـــاقى وما عداها بهرج لا يبقى ٠ فهى كالأم من فرعون ، لأنها ملاذ الروح والفؤاد ، وليست مجرد ضجيعة فراش ساعة من ليل أو ساعة من نهار ٠٠ فهل كنت تريدينها بعد هذا أن تغار ؟

ـ لا والذى نفسى بيده !٠٠ ما من امرأة ذات قلب كبير وذوق مرهف أوتيت برهانا على مكانها عنـــد زوجها كما أعطيت تى وسط هذا الحريم ! انها لعمرى حرية أن تزهو وليست قمينة أن تغار

ـ كذلك كانت أمى ! لا تنزل بنفسها الى منافسة هاتيك الأناث ، وتزهو بعلوها فوقهن جميعا بمقامهـا فى الدولة ومقامها فى قلب فرعون ٠٠٠ فهى التى تبدو معه فى المحافل الكبرى ، وتتزعم معه المواسم،ونستقبل معه وفودالمصاهرة من كل قبيلة فى الشرق !٠ وأما أبى فقد انطلق على سجيته، لا يهتم بأحد من زوجانه وسرياته الأخريات ، لأنه لا يمنع عن شىء من ذلك متى اشتهاه ، فلا يتعلق بواحـدة منهن ٠ ولكن يطلب المزيد دواماً ٠ فأهم ما يطلبـه من أمراء ولاياته وســـفراء عرشه فى الآفاق أن يتخيروا أسراب العـذارى الفاتنات ، فمبلغ اخلاص الامير أو الحاكم عنده هو مقدار تبريزه فى « توريد » هذه البضاعة من اللحم الابيض !

ـ انه فساد الحكم وضياع النخوة !

ـ هو ذاك ! فجزية الولايات كان معظمها من عــــذارى الولاية ، وسبيل الترقى هو هذا الباب الواسع الى مخـدع فرعون ، وسبيل المهادنة والحلف السياسى هو تقديم ملك الدولة الحليفة الى امنحتب الثالث ثلاثين أو أربعين عـذراء حسناء بكرا٠٠٠فهذا « أرشيف » وزارة خارجيته لا يحفل بشىء كما يحفل بأوامره الى أمراء « أورشليم » و « جيزر »

وأمراء سوريا فى طلب « ترحيلات » من ذلك اللحم البشرى الطازج ! ذلك عدا الأميرات من بنات ملوك بابل وآشور وغيرهما ... حتى لقد يجمع بين الأميرة وعمتها أخت أبيها ... ولا يدخر فى سبيل تلك الزيجات الملكية نفقة ولا بذخا ، بين مهور واحتفالات ...

ـ لعمرى ان هذا لهو السفه بعينه ...

ـ نعم وا أسفاه ! ولكن فرعون كان حريصا على شىء واحد : فهو لم يرض أبدا أن يبادل ملوك الشرق صهرا بصهر ، فلم يقبل تزويج بنت من بناته لملك بابل ، مصرحا فى غير مواربة أن بنت فرعون لن تعطى قط لغريب !

فقلت للملكة :

ـ جزاه الله خيرا ! فلو فعلها لكانت لتلك الدول فى عرش مصر من بعده مطامع قد تنجلى عن مواقع ومعارك . ولكن الله سلم .. بيد أنى أتساءل عن ثمرة ذلك الحريم الضخم ..

ـ وفيم السؤال ؟ انه لم يجعل فى حريمه مقاما يضارع مقام الملكة العظمى تى ، فنسله منها هو خلاصة الخلاصة ، وهو وحده الحقيق بالذكر والعدد ...

ـ وكم بلغ يا ترى ؟

ـ لم يبلغ كثيرا بلغة الارقام .. فلم يعش لأمنا تى الا أنا ، وأخوان هما تحتمس وامنحتب .. ثم مات تحتمس ، وعاش امنحتب ليحفر اسمه فى التاريخ بحروف من نور ، حين بشر باله واحد نور من فوقه نور !


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجتمع النقائض

تلاقي الاضداد

قلت للملكة عند هذا :

ــ انه لخزى ليس بعده خزى أن تتحول الدولة الى مهرجان شخصي • واني لأستميح جلالتك عذرا في هذه الصراحة •• فقد انقضى كل شيء ، ولم يبق من هذا كله الا ما يعتبر به المعتبر

فقالت :

ــ هو ما تقولين ، وأكثر مما تقولين • فليس أفدح الخطب أن تكون الدولة أداة مجد شخصي أو أبهة وزينة وزهو للحاكم •• فذلك وحده يهون وان لم يكن من الهنات الهينات ، وانما الخطب الذى لاخطب يعدله ، هو التغير الذى يطرأ على تكوين النظام الاجتماعي والعرف الخلقي في الأمة بسبب هذه السياسة التي يجرى عليها مثل ذلك الحكم •• فاذا كان فرعون رأس الترف والبذخ والأبهة ، فعلى سنته يجرى الخاصة وأهل النفوذ من رجال الدولة ووجوه البلاد •• فيرتفع رأس القصر ، ويشمخ بأبراجه الى أعنان السماء ، ويتلاقى معه الكوخ المتداعى الجدران في صعيد واحد • فانه لا يكثر الذهب في موضع الا لقلته في موضع آخر ، ولا تكثر التخمة في بطن الا اذا طوى بطن آخر على جوع وحرمان • فاذا قلنا عصر الأبهة فقد قلنا أيضا عصر الذلة والمسكنة • واذا قلنا عصر الترف ، فقد قلنا عصر الحاجة والفاقة ، واذا قلنا عصر الملذات واطلاق العنان للشهوات ، فقد قلنا عصر الرقيق ، تباع فيه الاجساد بدريهمات أو لقيمات ، ولا شغل فيه للمحرومين الا الترفيه عن المترفين •

فهو عصر النور والظلام ، وعصر الحرية والرق ، وعصر القدرة والعجز ، وعصر الرخاء والفاقة •• انه ملتقى الاضداد

فقلت للملكة ، لأهون عليها خطبها :

ــ مولاتي ! انه داء أصيل فى كل بلد وكل مجتمع ، أن تكون فوارق بين الناس فى الرزق ، وفى الصحة ، وفى الوسامة ، وفى الحظوظ •••

فقالت الملكة فى حرارة تكاد تشبه الحدة :

ــ وهل قال أحد بتحريم الفروق او رفع أسباب المباينة؟ ان الكون لا ينتظم الا بتلك الفروق • ولكنه يختل أيضا اذا زادت هذه الفروق على حدها المعقول • فنحن لا نعيب على زماننا ذاك الا أن الفروق قد تضخمت نتيجة للاختلال النفسى والخلقى ، لا انها سبب اختلال الاخلاق والضمائر كما قد يتبادر لبعض الاذهان

ــ عفوك مولاتى ! لم أحسن فهم مرماك من هذه العبارة الاخيرة

ــ أمرها يسير : فالناس منهم من يرى اختلال النفوس والاخلاق والذمم ناجما عن اختلال التوازن فى الارزاق والحظوظ • وهذا خطل فى الرأى ليس مثله خطل •• ذلك ان اختلال النفوس والضمائر هو الداء الأصيل الذى ينجم عنه اختلال التوازن فى الارزاق فى المجتمع الواحد

ــ وكيف كان ذلك ؟

ــ ان حب الذات ، وتقديم الملذات ومظاهر الأبهة على ما ينبغى من العدل والنزاهة والعفة ، هو الباب الذى ينفذ منه الوصوليون الى الغنى والنفوذ ، فيحرم الضعيف من حقه القليل ، ويثرى على حسابه الأقوياء • ويسرى بين أهل الحكم نوع من التواطؤ على أكل حقوق المستضعفين ، لما بين أهل الحل والعقد من منفعة مشتركة وتواطؤ على الاغتصاب

والكسب الحرام . فتضييع ثقة الناس فى عدل الحكومة .
ولا يفلح مجتمع تضيع الثقة فى نظامه قط ... مهما بلغ
حسن مظهره ، وخلب الابصار بريق ذهبه وجوهره ...

ـ ذلك والله فصل الخطاب فى موطن الداء من كل مجتمع
أصابه ذلك المصاب . فالعدل أساس الملك ، والثقة بالعدل
أوجب من العدل

الأصيل والدخيل

فقالت الملكة مستدركة :

ـ ولكن اختلال التوازن ، وفساد الذمم ، وضياع الثقة
عند القائمين بالامر ليست مبلغ الداء فى ذلك الزمان .
فتلك الفتوح التى كثرت واستقرت تسربت منها الى مصر
معتقدات جديدة ، وصور فكرية وعرفية لم تعهد فى البلاد
من قبل . وأدرك المصريون ان آلهتهم ليست هي الآلهة الوحيدة
وأن معتقداتهم ليست وحدها ذات القيمة والرسوخ فى
السرائر ، فتزعزع اليقين الأعمى ، وتفتحت العقول
الساذجة ، ونشأت « فكرة العالمية » بعد أن كانت القومية
دينا لايتصور الناس سواه ..

ثم سكتت الملكة لحظة وهزت رأسها مبتسمة ، فقلت :

ـ أضحك الله سنك يا مولاتى !

ـ أمر خطر لى فى مفارقات أحوال بنى الانسان : ففى
ظلال العالمية تنشأ الفردية .. وهى فى ظاهر الأمر نقيضها
الذى لا يجتمع معها . ذلك أن الانسان اذا آمن بالعالمية ،
قل ارتباطه بالمحور القريب من قبيلة أو أمة ، وأدرك أن
« الفرد » هو وحدة النوع كله وليس مجرد جزء من شعب ،
فكل فرد « عالم » بذاته فيه انطوى العالم الاكبر .
ومن العالمية التى تنطوى على الشعور بالفردية ينشأ التحرر
الدينى ، والتحرر الفكرى ، كما تنشأ الانانية وينشأ الكفر

بما تمثله الاديان القـــديمة ... وبين ذلك وبين الكفر بكل ديانة على الاطلاق خطوة واحدة • وهذا هو ما جعل الناس يعبدون شهواتهم ساخرين عمليا من نواهى الدين وفضائله

بين المعبد والقصر

فهتفت :

ـ عجبا ! لقد اقام الكهان من سدنة آمون هذا الفرعون على العرش ، فهل يكون هو عينه سبب بوار ذلك الدين؟•

ـ أجل •• تلك مفارقة أخرى فى بلد المفارقات • وقد عجب لها كهان آمون وسخطوا• ولكن ماذا كانوا يستطيعون أن يفعلوا ؟

ـ أليس من يولى قادرا أن يعزل ؟

ـ ليس دائما ! فان من يفتح القمقم فيخرج منــه الجنى لا حول له باعادته اليه متى شاء •• اذا كان الجنى أريبـــا حصيفا • وكان فرعون أريبـــا حصيفا • وماذا كان كهان آمون فاعلين بعـــد أن قالوا انه ابن آمون ؟ وماذا يقولون والعرش مقدس مصون ، لا يخلع شاغله ولا تمس ذاته ؟•• فما بالك وفرعون يغدق العطايا بغير حســاب ، حتى جمع حوله أهل النفوذ كافة ، ودانت له جميع الرقاب ، فى زمن بيعت فيه الضمائر ورخصت فيه الذمم ، وأصبحت الغيرة على الحق شيئا مضحكا سخيفا أو ضربا من السفه والبلاهة!

ـ هى الأبهة والملك العريض اذن ، ومن تحت ذلك كله جسم عليل ، اجتمعت عليه الادواء التى يتعارض علاجها••

ـ وحتى هذا الملك العريض يا بنية لم يكن كأمس صرحا ثابت الدعائم ، وان بدا فى شموخه ولألائه كأمس وأبهى •••فان الاخلاد الى الترف ، وتكليف الأمراء والولاة جباية المال ، وتجنيد الابكار لاشباع شهوات فرعون ، قد سمح للانحلال أن يدب الى ذلك الصرح فيتصدع شيئا فشيئا ،

وفرعون لاه عن ذلك كله ، يعالجه بالسكوت والاغضـــاء ، استبقاء للراحة • فليس يعنيــه من بلاد الامبراطورية الا ما يأتيه من سمنها وعسلها ولحمها الابيض ! فالغفلة والشهوة طابع ذلك العصر المنكود •••

والعتاد والأجناد ؟

فصحت فى دهشة :

ــ والعتاد يا مولاتى والاجناد ؟ ماذا صار من أمرهم فى ظل هذا الفساد ؟

ــ مفارقة أخرى ! فالجيش قد صـــار ملاذ أبناء البيوت الوسطى ، يجدون فى خدمته شرفا لا يصلون اليه فى الخدمة المدنية •• فاحتفظت ألوية الجيش بذخيرة طيبـة من كرام الناس ذوى الخلق والمبادىء ، وان بقى عمل هـــذا الجيش العتيد هو المشى فى المواكب والمحافل ••

ــ الله أكبر ! ألى هذا صار جيش فرعون وسيفه البتار؟•

ــ أجل •• وفرعون نفسه الذى كان يسـبق الصفوف فى حومة الوغى كأنه اله الحرب شجاعة وبأسا ، تحول على سنة الترف تحولا طبيعيا ، فصار السيف الصقيل والسهم المريش لا يضرب فى صدر العدو ••• وانما فى قرن بقرة من بقر الوحش ، أو أيل من أيائل الصحراء ، أو تيس من تيوس الفلاة • لقد انقلب القائد صـــائدا ••• وانقلبت أكاليل المجـد جلود ماشية من دابة الارض ! فالسيف هو السيف ، والقوس هى القوس ، والهمة هى الهمة ، ولكن فسد الزمان ، فتغير الميدان ، وصار الزهو بالصيد موضوع تصاوير تملأ الجدران ، وتنظم فيها القصائد الحسان !

ــ مولاتى ! تلك حملة شديدة على أب •••

ــ رويدك ! لولا أن الصفحة طويت ولم يبق فى الدنيـا مطمع لما انطلق اللسان ولما صدق البيان •••

ـ تلك يا مولاتى عيوب كثيرة ، فهل ليس لذلك الزمان حسنة واحدة ؟

ـ له حسنة لا شك فيها ، هى الشفيع الوحيد اذا عز الشفيع !

ـ وما تلك ؟

ـ ذلك الفن الجميل الذى تحرر من كل قيد ، وارتقى الى أفق لم يبلغه من قبل ، فقد خلف الترف والبذخ ذلك التفنن فى الصناعة ، وتلك المهارة فى العمارة ، وذلك الابداع فى التزويق والتصوير ...





حصاد الشهوات

أصبع الزمار ..

وقالت لى الملكة فجأة :

ــ والآن تعالى يا بنية لترى هذا الفرعون العزيز الجانب، القوى الساعد فى الصيد ، الطويل الباع فى لذة الكاس والوتر ... وقد بلغ آخر مرحلة فى العمر

ودخلنا حديقة القصر ، فاذا زهر مونق فى أحواض بين مربع ومثلث ، بينها ممرات منضدة بالحصباء،وعلى جانبيها أشجار النخيل والدوم ، والمر ، والبلسم والتين والرمان والسنط والتمرحناء والطلح (الاكاسيا) ... فكان لها نفح عجيب وظــــل رطيب . وأدهشتنى دقة الهندسة فى تخطيط البستان وتنسيقه ألوانا ، وأطوالا ، وأغصانا... فقلت :

ــ لعمرى يا مــولاتى ، ان لويس الرابع عشر لحقيق أن يغار من هذه الاناقة ، وأن يطامن من زهوه بحدائق فرساى التى ملأ الدنيا بها ضجة وفخرا ...

فالتفتت الى الملكة وقد زوت ما بين عينيها وأغمضتهما نصف اغماض ، وصاحت بى فى حدة :

ــ ومن لويس الرابع عشر اذا ذكر امنحتب النالث ؟

فسكت ... ولكنها استدركت بعد قليل :

ــ ان الفارق بينهما فى المجد الدنيوى هائل...ففرعون كان سيد العالم غير منازع..ولكن اذا أقمنا الميزان للخلال وبواعث الاعمال وأهـــداف الرجال ، كان الرجلان فرسى رهان : همهما الأبهة والمتعة المسرفة . فليس فى أحدهما

قدوة لشهم كريم ٠٠ وكلاهما أيضا أكل الحصرم ، وضرس من بعده بنوه ، فدفعوا ثمن ما اقترف من ذنوب ٠٠٠ وى ! انظرى الى بعيد ٠٠ عن يسار ، تحت هذه العريشة ٠ أما ترين هذه القينة ترقص ؟

ــ بلى ! انها شبه عارية ٠٠٠

ــ البسى منظارك هذا ، فانه من نعم زمانكم الجليلة،فانى أعلم أن فى نظرك قصرا عن المدى البعيد ٠٠ وانظرى جيدا ماذا ترين ؟

ــ أرى أمامها شيخا جالسا فى اعياء ، متهدل الجلد ، متكئا على عصا طويلة ، وعليه برود ناعمة هفهافة ٠٠٠ ليت شعرى ! كيف يقدم شيخ أشرف على الموت على مثل هذا المجون ؟

فضحكت الملكة وقالت :

ــ عند أمثالكم الجواب : يموت الزمار ولا تسكن اصبعه عن الحراك !

ــ وى ! أهذا فرعون مولاتى ؟

ــ أجل بنيتى ذاك أبى فرعون ٠٠ قد شاخ وهرم ولما يبلغ الخمسين من عمره بعد ٠٠٠

ــ لقد أراد الحياة عريضة ، وان لم يعشها طويلة ٠٠٠

ــ عريضة بالملذات يا بنية ، وبالزهو الكاذب والانخداع بملق رجال الحاشية « الأمناء » ! فقد استمرأ لذة العيش ، وما لذة العيش الا للمجانين ! استمرأها فأقبل عليها اقبال المنهوم ، لا يحلم بشىء وراء ذلك ٠٠ وأقدم على ما لم يقدم عليه من بعده الا أتباع ابيقور من مترفى روما المنحلين ٠ فقد كانوا يأكلون حتى الشبع من أطباق شهية جدا ، ثم يتقيأون ما أكلوا ، حتى يتسنى لهم الأكل مرة أخرى !

ــ وهل كان فرعون يفعل ذلك يا مولاتى ؟ هل كان يضع

ريش الطير فى حلقه حتى يستفرغ ما فى بطنه ؟

ـ كلا ! فان التشبيه مع الفارق . . . اذا نقلناه بحذافيره من المائدة الى المخدع ، كان صحيحا مطابقا •• فالمعاجين الموصوفة لتقوية الشهوة كانت هم هذا الفرعون ، لا يستكثر فيها أغلى الاثمان للسحرة والأطباء ، والسحر والطب قريب من قريب فى ذلك العهد ، لا يثق الناس بطبيب لا يزعم أنه ساحر ، ولا بساحر لا يبرىء سحره من داء •• فجنى ذلك الافراط عليه جناية كبرى ، اذ شاخ قبل الأوان

ـ مولاتى •• يقولون فى زماننا ان عمر الجسم هو عمر خلاياه وغدده ، لا بحسب السن ، ولكن بحسب القوة والنشاط . . فعمر والدك الحيوى أضعاف عمره الحسابى ••

ـ صدقتم فى هذا التقدير ••• ويضاف الى ذلك أن كثرة المخالطة بنساء كثيرات من رقيقات العفة لا تؤمن عقباها فى الصحة •• فكم من داء نجم عن ذلك ، فورثه الاولاد مظلومين •••

هذا ما جناه أبى ••

وصمتت الملكة لحظة كالمهمومة ، ثم قالت لى :

ـ أرأيت الى تمثالى ذاك الذى أعجب به الناس وافتتنوا ؟

ـ أجل •••

ـ انه تمثال رأسى ••• فلماذا لم أجعله تمثالا كاملا ؟••

فترددت قليلا ، ثم قلت محيرة :

ـ مولاتى ! لعل ذلك أليق بجلال الملك !

فصاحت بى :

ـ جواب لبق •• ولكنك وربى حمقاء اذا كنت تعتقدين هذا حقا !

وحدقت فی وجهی كالمغضـــبة أو كالمتحدية لحظة ، ثم كشفت بيديها عن بطنها ، فاذا هو متهدل الى أسفل ، فلم أملك نفسی أن أشيح بوجهی عنه ...

فألقت الثوب المنحسر من يديها فانســدل الى الارض ، وقالت ببطء :

ـ أرأيت ؟ ذلك ما زهدنی فی تمثال كامل ... وهو هو الميراث الظـــالم الذی ورثته عن أبی المتهالك عــلى اللذات والشراب ، حتى تضخمت كبده ، واعتل طحاله ، وانتفخت أمعاؤه ..

ورأيت الملكة تحتد،حتى خشيت من بوادر ذلك الغضب، فأردت أن أسری عنها بمجاملة هی الحق ، فقلت :

ـ مولاتی ! وهل تأسين على تمثال كامل ، وقد ضمن لك ذلك التمثال النصفی اعجاب العالمين ؟ وهلا غفرت لأبيك ميراث البطن المستور بالثياب ، نظير هذا الجيد الأتلع الذی لا يضارعه فی طوله الا جيد غزال يتغنى بجماله الشعراء ؟

ـ حماقة أخری وضلالة جديدة من أوهام الناس الشائعة!

ـ وی !

ـ ان هذا الجيد الذی أعجب به الناس ميراث مرضی آخر ... ولكن الانسان جبل على مداراة العيب ، وعلى أن يجعل من الضرورة فضيلة !

وأطرقت لحظة ، ثم قالت وقد وجدتنی صــامتة لا أحير كلاما :

ـ وأزيدك علما بذلك الميراث « الجميل » : أترين الى هذا التاج الذی يزين رأس تمثالی،حتى صار علما على نفرتيتی؟

ـ نعم ! وانه والله لطريف رائع ...

ـ ذلك فضيلة أخری ندين بها للضرورة الملحة ! ان رأس اخناتون اخی ورأسی أنا شبيهان فی الاستطالة المرضيـــة

المنفرة ... ولكنه رجل ، وأنا امرأة لا قبل لى باعلان القبح على الناس ... فجعلت من ذلك القبح سبيلا الى الجمال ، فكان هذا التاج البادى فى التمثال ...

وأطرقت مرة أخرى مهمومة

بقية الحصاد

فلما طال اطراقها قلت لها :

ـ مولاتى ! لقد ذهب الماضى بخيره وشره ، ولا خير فى الأسى على ما فات ، فما فات مات ...

فضحكت وقالت :

ـ أو ما مات فات ، سيان ! صدقت ، ولكنها ذكريات ممضة حقا ، وبخاصة حين أذكر بكر اخوتى الذى نمدناه يافعا ... فلو عاش ذلك الأخ الفتى تحتمس .. ولكنه مات فى ريعانه وهو فى منف يدبر أمر الثقافة ، ويشرف عن كثب على تنظيم الجيش واقامة العمائر..مات أكثر الظن ببركة ميراث أبى من أعقاب الملذات والاسراف فى المجون والشراب ... فلما أدرك الهرم أبى فى استواء العمر،ورأى كهنة آمون يضمرون له الكيد ، وذكر كيف اعتلى العرش بيدهم فى غير حقه ، خشى أن يفعلوها من بعده ، فأشرك أخى امنحتب معه فى الحكم سنواته العشر الاخيرة .. ثم زوجنى منه ، ليكون مجلسه على العرش موطدا وبمأمن من غدر كهنة آمون ...

مات الملك

عاش الملك

صفحة طويت

وأمسكت الملكة بمعصمي بين اصبعيها الجميلتين وقالت :

ـ واخيرا يا بنية حم القضاء ، وأدركت المنية أمنحتب الثالث ، فرعون مصر « الفخيم » ولم يجاوز الخمسين من العمر ... ولكنه كان قد شاخ منذ أن بلغ الاربعين ، ولم تغن عنه السطوة والجاه العريض ، ولم ينفع فى رد ما خار من قواه طب بابل وآشور،بعد أن عجز طب مصر عن ابرائه. مات الأب فخلفه ابنه الشاب الذى سلخ فى التدريب على أعمال الملك عشر سنين ، منذ كان صبيا ، فصار الملك الفرد، المصون الذات عن غدر الكهان بحكم توليه العرش فعلا ذلك العقد الكامل من الزمن . وبذلك طويت صفحة ملك دام ثلث قرن من الزمان ، لتفتح صفحة جديدة ، قدر لاخي وزوجي ولي أن نكون قلمها ودواتها .. وقدر لهذه الصفحة أن تكون صفحة فذة فى تاريخ مصر القديمة كله ...

فقلت للملكة :

ـ ولكن هل تستطيع الصفحة الجـــديدة أن تتحرر من جرائر الصفحة المطوية ، فلا تتأثر بما سطر فيها ثلث ذلك القرن من الحكم الفاسد ؟

ـ هيهات يا بنية .. هيهات ! فالتاريخ سلسلة متصلة الحلقات ، فاذا لم يصح أن التاريخ يتكرر ، فالذى لا شك فيه أنه يتطور ، والتطور ظهور بعد كمون ، فما كان شرط لازم لما سيكون ...

ـ حنانيك مولاتي ! ذلك قول أولى به شيخ كابن خلدون ! وانما مبلغ ما أتوق الى علمه عن صفحة فرعون الذى قضى ،

هو مقدار ما أثرت به فى صفحة فرعون الجديد
ـ ان الصفحة القديمة مشحونة بسخط جميع الناس . فمن عجائب الامور أن عصور الانحلال يشيع السخط فيها بين جميع الناس ، مع أن جميع الناس مشاركون فى الانحلال العام وفى أسباب ما يسخطهم .. فكل واحد من الساخطين يسخط على جانب العلة الذى لا ينجم عن نفسه ، أو هو يعلم مقدار مشاركته فى الفساد ولكنه يتعلل بأن الجميع قد فسدوا فلا سبيل أمامه للصلاح وحده ... ونظرة الى رجل سكير عربيد حين ينتشى ، تطلعنا عليه باكيا فى بعض الاحيان حزنا على سوء حاله وسقوط مروءته .. فهو يعلم أنه فاسق وانه ساقط المروءة ، ولكنه عاجز عن اصلاح نفسه . كذلك المجتمع الذى يسرى فيه الفساد حتى يدمنه، نرى أفراده عارفين مبلغ فسادهم ، ولكنهم عاجزون عن النوبة أو زاهدون فيها لغلبة الشهوة عليهم ... وكذلك كان شعب مصر فى أخريات حكم أبى . فالمحافظون على القديم ساخطون ، وأصحاب آمون ساخطون ، وأهل النجدة على قلتهم ساخطون ، وأهل الولايات يتربصون الفرص للانقضاض، والجيش متذمر من هذه الميوعة الفاشية ، والشعب ساخط لهذا الفقر الذى يجثم على صدره ، ودعاة التحرر الناجم عن اتساع الآفاق وحرية الفكر ساخطون لبقاء آمون مخيما بظله على عقول الناس ... فكيف نكتب صفحة جديدة بعد هذه الصفحة دون عناء ، ودون تعثر؟ فمن ذا الذى يستطيع رفع كل هذا السخط المتناقض البواعث والاهداف ؟

ـ ذلك ما أرانى مشوقة الى معرفته على حقيقته

ـ ساريك اياه ، وساريك اخناتون ، امنحتب الرابع ، وساريك نفسى فى جواره رأى العين حين مات أبوه ، وصار اليه الأمر كله ...

ـ وكيف تفعلين ذلك ؟

ـ اغمضي عينيك ...

واغمضت عيني ، فمسحت جبهتي بيدها ، فأحسست اني اغفيت برهة ، ثم صحوت فاذا انا في بهو ضخم ، فيه عمد رشيقة منقوشة ، واذا شيء يهمس في اذني :

ـ هذا قصر فرعون الراحل ، عن يمين النيل ، في حضن الجبال النحاسية على حدود وادي العدم . انه قصره الذي بناه للملكة تي ، وجعل فيه بركة كبرى اسماها « مورد اللذات » ... امضي

ومشيت قدما كالنائمة .. فاذا الصوت يهيب بي :

ـ يسارا .. يسارا .. من هذا الباب الذي يقف به الحارس . لا تترددي . انه لا يراك ، ولا يسمعك . ادخلي ...

ودخلت ...

تركة فرعون ..

قاعة كبيرة في صدرها ايوان فخم ومن حول الايوان ـ على مبعدة ـ نفر من الناس في ثياب الخاصة ، وان بدوا فيها كالغرباء عنها ! وعلى الايوان رجل حليق الراس عاريه ، يبدو راسه مستطيلا استطالة شاذة ، ومن تحت جبهته الضيقة عينان وانف طويل كانف الحمار ، وشفة عالية بارزة ، وعنق طويل ، وبطن متهدل ... والى جانبه تلك الملكة التي كانت مرشدتي في ربوع طيبة منذ قليل . ومن حولهما طفلتان صغيرتان ، احداهما تعبث بذقن ابيها ، والاخرى تجذبه من اذنه !

هذا اذن امنحتب الرابع ، الذي سيعرفه العالم بعد باسم اخناتون .. وهذه زوجه وبنتان من بناته ، وهؤلاء خاصته الاقربون مطاطئين رؤوسهم لايجسرون على النظر اليه ، على تقليد البلاط الفرعوني

أما الملك فلم تكن عليه شارات الملك ، ولم يكن شامخ



الملك « اخناتون » زوج نفرتيتي

الرأس مقطب الجبين فى سمت التوقر .. بل كان مطرقا حزينا ..

ومدت الملكة يدها فداعبت يده وربتت عليها ، فرفع اليها عينيه . وتعلقت عيناى بهاتين العينين : انهما عينان فذتان . أجل أنهما لا يمكن أن توصفا بالجمال الخارق ، ولكن شيئا فيهما يستوقف النظر: فكانهما ليستا عيني بشر من أهل هذا العالم ، فليس فى عيون أهل هذا العالم كل هذا القدر من الاحلام البعيدة، والآفاق الرحيبة. . . انهما عينا حالم يتسمع أصواتا تاتى من وراء الافق ، من عالم غريب غير منظور ، وغير مسموع ، ولكنه يسمعها سماع اليقين ، ولا يحس لغيرها وقعا فى اذنيه الكبيرتين . . .

ولكن أحلامه فى هذه اللحظة كانت حزينة ، أسيفة . . .

وهمست الملكة فى أذن زوجها ، الذى انستني عيناه كل هذا القبح الذى حشد فى سحنته الغريبة ، قائلة برفق ودعة :

ـ فيم الحزن والاكتئاب يا امنحتب ؟ هؤلاء المخلصون من رجالك الذين اصطفيتهم بنفسك من حولك ، يهنئونك بالسيادة على العالم .. الا تهش لهم ؟ ..

وصمت لحظة ، ونظره الزائغ لا يزال متعلقا بذلك العالم غير المنظور ثم قال فى صوت بطىء المقاطع :

ـ السيادة ؟ اترينها شيئا يسر القلب ؟

ـ كيف لا ؟!.

ـ بل كيف أجل ؟! انها عبء .. انها جد الحياة المر لا زخرفها الماتع . الا أن نعيد صفحة طويت يا أختاه . . .

وربتت على كتفها تربيت المحزون المذعن للواقع البغيض . . .

وفى هذه اللحظة دخل رجل بدين ، فالقى بنفسه على الارض بين قدمى فرعون ، وجعل يهلل بالدعاء ، فالتفت اليه

فرعون . . . ثم اذن له فى الكلام، فقال الرجل البدين المزخرف الثياب بالقلائد والاساور :

ـ ليتهلل قلب مولاى فقد دانت له الدنيا وقربت اليه قطوف المسرات .. وتحت يدى عبده فى غرفات قصوره الملكية ست عشرة زوجة من بنات الملوك والاقيال ، واثنتا عشرة مائة من السرارى الحسان ، منهن سبع وخمسون ابكارا لم يمسسهن بشر ، جئن فى البريد الاخير لمولاى الراحل ، وكن تحت التدريب والتهذيب فى حجرات القصر . . .

فداعبت شفتى فرعون ابتسامة، والتفت الى الملكة فتبادلا نظرة سريعة ضاحكة ، ثم توجه الى امين القصر بهذا السؤال:

ـ كل هذا العدد الضخم ؟. انها حقا لمشكلة . . .

فاسرع الامين يقول جادا :

ـ عاش مولاى الى آخر الدهر ، ممتعا بالصحة والجمال والقوة . . . ليست فى الامر مشكلة ، فاذا اذن لعبده ملك يمينه تكلم . . .

ـ تكلم ..

ـ هناك اكثر من حل او نهج لسياسة الحريم . فاذا شاء مولاى اتبعنا نظام الطول ، الاطول فالاطول . أو نظام اللون السمراء فالبيضاء . أو نظام القرعة ، ايها خرجت قرعتها نالت الشرف العظيم بالاضطجاع تحت قدمى مولانا ليومه أو ليلته . . .

فلمعت عينا فرعون الشاب ، حتى اشرقت اساريره بهذا الابتسام ، والتفت الى الملكة مازحا :

ـ نفرتيتى .. ما ترين يا أختاه فى هذا الذى يعرضه علينا امير الحريم ؟ أى هذه المناهج التى تنم عن رجاحة عقل وسعة علم ترينه اليق بالاتباع فى ملكنا الجديد ؟..

فبان فى وجه الامين ، وفى وجوه سائر الحاضرين الدهش

العظيم لتوجه الملك بهذا السؤال الى الملكة بالذات .. وفاتهم ما فى سؤاله من تهكم لاذع

وابتسمت الملكة وقالت :

ـ انها لحيرة عظيمة يا مولاى وشقيقى ... وأحسبك وحدك المسئول ان تجد لك منها مخرجا ...

فهز فرعون كتفيه والتفت الى الامين، وقد تلاشى الابتسام من محياه وبدا عليه الجد الصارم ، ثم سأله :

ـ ليس المخرج هو الذى يحيرنى الحيرة الكبرى .. وانما هو المدخل الى هذا كله ! فما الذى خلق هذا الاشكال ، ومن أين لى هذا كله يا امين القصر ؟.. ولماذا يكون لى كل هذا الجيش من النساء ؟

فصاح الرجل دون ان يرفع راسه ، وهو يغالب الحدة التى تجيش فى صدره :

ـ مولاى ! اطالت الآلهة حياتك يا نور رع حور اختى .. انها تركة والدك العظيم . فقد كان والدك عظيما جدا يامولاى . كان له كل هذا ، وكان يعلم ان له اكثر من هذا ، فالعالم كله رهن مشيئة فرعون ابن آمون يا مولاى ... والآن قد صارت كل هذه التركة الجميلة ، اجمل تركة فى الدنيا ، الى مولاى ابن مولاى ، سيد العالم ...

ونطح الرجل الأرض براسه علامة الاجلال ...

وهز فرعون راسه مرة أخرى ، ثم قام يتمشى فى الحجرة طولا وعرضا . والكل كأن على رؤوسهم الطير ... وان خالسوه النظر فى عجب من هذا التمشى الذى لم يعهد فى حركات الملوك ، بل الآلهة من فراعين مصر ..

وعلى حين غرة ، اذ هو عند الايوان ، القى بنفسه فوقه بجانب الملكة والاميرتين ، ثم تصلبت اطرافه ، وتصبب عرقا !

وصاحت الملكة :

ـ انه الداء الملكى ! عاوده الصرع ...

وصاح واحد من الحاضرين تبدو عليه الطيبة وبساطة الاصل :

ـ انه مس الآلهة حين تتصل بينهم وبينه النجوى ....

واشارت الملكة فانصرف الجميع ، عدا هذا المتكلم الذى قالت له الملكة فى لطف :

ـ ابق أنت يا مريرع .. واقترب من مولاك ....

فجعل يجلب له الهواء بمروحة فى يده ، واخذت الملكة تمسح عن جبينه العرق المتصبب ، حتى أفاق من غشيته بعد لحظات . . فجعل يدور بعينيه فى أرجاء القاعة، ويتفحص وجه الملكة والاميرتين ومريرع كأنه يراهم لاول مرة ، ثم تهلل وجهه فى اعياء وقال :

ـ هذا أنت يامريرع ؟

ـ لبيك مولاى ...

ـ لقد غامت نفسى وثقل عليها هذا الميراث « الجميل » كما يسمونه مخلصين . ولكنى مهتم مغموم لهذا الميراث الذى يذكرنى مبلغ ما أمامى من أعمال جسام ، لست واثقا من مقدرتى عليها وقد استشرت وأشربنها نفوس الناس

ـ مولاى ! ان سلطانك لا يعلوه سلطان ، فاذا لم تفعلها انت فمن ذا يفعلها ؟ من للحق والعدل والخير والفضيلة والمحبة ورفع المظالم يا مولاى اذا لم تكن أنت وليها وأمينها وسر الاله معك ؟

ـ اجل ، لقد غامت نفسى ففتحت لى صحائف الاسرار ، ولقيت فى طواياها ما رد على القوة واليقين والاقتدار .. ادع امين القصر ...

ودخل الامين، فخر على الارض أمام مولاه . . فقال فرعون بصوت حازم على هدوئه الشديد :

ـ أمين القصر .. اسمع ما يأمر به مولاك فرعون مصر ..
ـ المجد لفرعون سيد العالم وروح الاله آمون ...
ـ هذا الحريم لا حاجة لى به ...
ـ مولاى ! أموتا يمتن أم ...
ـ اسمع ! لاموت لأحد .. انما أريد الحياة للجميع !
ـ فرعون هو الحياة والصحة والباس !..
ـ اصغ لى يا أمين القصر ... لترتب لهذا الحريم حياة طيبة ، ولتكن له منازل خاصة ، ولكنه لا يسكن بعد اليوم فى مساكن فرعون ...
ـ فرعون هو الحياة والصحة والباس !.. أمر فرعون نافذ ...

وانسحب أمين القصر ، فهمس الصوت الخفى فى أذنى :
ـ اتبعيه لحظة ريثما يختلى برجاله المقربين ، فان ذلك الامين قد تلقى الآن حكم الاعدام على نفوذه الاعلى ، لانه أمين الشهوات ، والشهوات كانت هى مقاد فرعون السابق الذى ليس بعده مقاد ...

وتبعته الى ديوانه غير بعيد ...

غضبة ((الأمناء))

وفى الديوان رأيت أمين القصر الذى كان منذ لحظة منبطحا على الارض ببطنه وشحمه ، وقد تطاير الشرر من حدقتيه ونفرت العروق بين عينيه ، وعنده رهط من كبار القوم عليهم شارات الحكم ، وأشعرت أن هؤلاء من أمناء البلاط ، فمنهم أمين الزخارف والكساوى ، ومنهم أمين الشراب والمائدة ، ومنهم أمين الحلى والجواهر .. وكلهم غاضب ثائر مع أمين الحرم ، الذى كان يرغى ويزبد ويهدر كالفحل وما هو من الفحول !..

ـ أهذا فرعون مصر الآن ، أهذه مهابة الفراعنة وعزة الملوك الامجاد ؟ اى هيبة لفرعون وأى أبهة بلا حريم ؟ أملك هو أم درويش من الدراويش ؟

وصاح آخر ، أشعرت أنه أمير المراسم والحفلات والتشريفات :

ـ وماذا كنا ننتظر غير هذا وما هو شر منه ، من رجل رفع السوقة الى مقام الخاصة ، وجعلهم المقربين اليه .. جمعهم من مجالس العامة وصحون المعابد ، معابد الشمس، ومن التسكع والفراغ والصعلكة ، فرقى بهم مالا يرقى النبلاء العريقون كابراعن كابر ؟..

ـ هذا مريرع مثلا ... طالب علم فى معبد ، من عامة العامة ...

ـ و « ماى » .. ذلك الصعلوك الذى كان يتسول ليعيش ؟

ـ ان العرش العتيد ، عرش آمون وضحى الشمس ، بات مهددا بالزوال مذ آل الى هذا الرجل التافه ، حلف الاوراق وقراءة الاوراد والمزامير ...

ـ ليشبهن أحد دراويش رعاة الغنم .. أولئك العبرانيين الانجاس

ـ أهى النهاية اذن ؟ ماذا يقول الناس ؟ وكيف يحترمون رجلا لا يريد النساء ، ولا الطيب ، ولا يغرق من حوله فى كرمه ، ولا يخشى عدوه سيفه ؟ وأى نفوذ يبقى لنا ؟ وكيف تقوم الدولة بلا نفوذ ، وكيف يلمع التاج بلا زهو ولا أبهة ، وكيف يكون الصولجان مجردا من الصولة والسطوة ؟

ـ أنه الليل ، ولكل ليل آخر .. فاصبروا وتربصوا ...

اصحاب النجوى

وهتف بى ذلك الهاتف المجهول :

ـ والآن الى بيت مريرع ، صفي فرعون ، الذى رفعه من الحضيض الى الذروة بما تنسمه فيه من بوادر الخير والاستقامة ..

وسرت كأنني فى حلم ، حتى بلغت بيتا غير بعيد من القصر ، عليه مسحة النعمة الطارئة ، زخرفا وأثاثا . وفى بهوه جلس مريرع ، وشاب آخر سمح الوجه ، أشعرت أنه «ماى» . . . واذا على وجه الاثنين فرحة لا حد لها :

وقال مريرع :

ـ لقد آن الاوان أخيرا أن ينتهى كل هذا الفساد الذى ضاق به الناس حتى أوشكوا أن يخرجوا عن طورهم .. فما أسعدنا أن تغدو الدولة الى يد أمينة متعلقة بالحق ...

ـ وهل جلسنا الى فرعون يوما الا كان حديثه عن «الحق» الذى ضاع فى غمار من الاكاذيب والمخاتلات والتضليل ؟ .. ما أسعد فرعون اليوم يا مريرع ...

ـ جانبت الصواب يا «ماى» . فقد لقيته اليوم وقد فرغ من تشييع أبيه الى مقره الخالد .. فاذا حيرة واهتمام يكاد يغلبه على همته ...

ـ وى ! انى قست فرحه على فرحى ، فحسبته كاد يخرج من جلده . وما فرحى الا لجاه لا يبلغ من جاهه ما تبلغه الحبة من الجبل ...

ـ ولكنك نسيت شيئا .. نسيت يا « ماى » اننا نصير الى جاه بعد فاقة ، والى ذكر بعد اهمال . اما هو فليس شىء من ذلك عليه بجديد . فهو حقيق ألا يزدهى بالسلطان ، وانما هو حقيق بالشعور بوطأة السلطان على كاهله .. وانه لعمرى لكثير . أم تراك نسيت يا « ماى » خروجه معنا متنكرا نجوس القرى ونشهد مجالس الكادحين اذا جلسوا للقيلولة فى ظل أشجار الجميز ، وكيف كان قلبه يتنزى وهو يرى مبلغ شقاء هؤلاء الناس عن كثب ؟ ..

ـ اجل اذكر ولا انسى ...

ـ فكيف اذن تحسبه يفرح بالسلطان ؟

ـ لانه الآن قادر على ازالة كل ما لا يرضاه ...

ـ لقد شطط بك الوهم !..

ـ وى ! وفيم الحزن اليوم ؟ ان الحزن فيما مضى كان مفهوما لانه غير متفرد بالسلطان ، ولانه يريد ولا يستطيع ما يريد . اما اليوم فعلام الحزن،وهو قدير أن يامر فلا يرد؟

ـ بل انه اليوم اليق بالهم والغم .. ففيما مضى كان امامه الامل ان يتغير الحال ، واما اليوم فلا امل وراء قدرته .. فاذا لم يستطع كانت تلك قاصمة الظهر التى لا يقال لها عثار .. فهو لهذا مشفق من هول التبعة،عالم بمسئوليته الكبرى

فاطرق « ماى » لحظة ، ثم أشرقت أساريره وقال :

ـ لا ادرى ... ولكنى على كل حال فرح مستبشر . وبينى وبينك ، اراه متعلقا بما لا ينال ، فلماذا لا يتمتع من الدنيا بما قيضته له الايام ؟ ..

ـ ها !.. لقد سرح حريم ابيه ...

ـ ماذا تقول ؟ ايسرح أفخر وامتع حريم فى العالم ؟

ثم ضرب على فخذ مريرع ، وضحك ضحكة تمتزج فيها المرارة بالسخرية وقال :

ـ اننا سيئو الحظ يا صاحبى ... لو أن الذى احبنا واصطفانا كان فرعون القديم ؟ أو لو أن لى انا هذا الحريم ؟

ـ اسكت « يا ماى » .. اسكت . اتكفر بالنعمة ..؟

ـ ابدا .. انى اذكرها دواما ، ولكنى اذكر ايضا ذلك المثل الذى يقول : « ان الاقراط تعطى دائما لمن ليست لهم آذان » وعندئذ هتف الهاتف الخفى فى اذنى :

ـ دعى حديث الاقراط والآذان ، وهيا الى القصر مرة اخرى



النور الجديد

عود على بدء ..

والفيت نفسى علـــى درج القصر العـــريض المفضى الى البستان ، وامامى الملكة نفرتيتى .. فحرت فى بادىء الامر اهى الروح المبعـــوث ، أم هى الملـــكة التى رايتها بجوار زوجها منذ حين ؟ ولكنها حسمت الحيرة بابتسامة مشرقة وجهتها الى ، فعلمت أنها الروح المبعوث لا الجسد الفانى . ووضعت يدها على كتفى برفق وهى تسألنى :

ـ أرأيت ؟..

ـ رأيت يا مولاتى .. وانى لمشفقة من ذلك العبء الرازح الذى أثقل كاهلك وكاهل زوجك ، فانها الظلمات المطبقة والهاوية التى لا يعرف لها قرار ، والمتاهة التى لا مخــرج منها لمن تردى فيها ...

ـ هو ذاك .. ولكن بذرة الأمل فى النفوس الكبـــار لا تدع لليأس الى سريرة أصحابها سبيلا ، وان بعدت الشقة وقامت دون الغاية عراقيل وأهوال... ولئن قيل فى بعض الامثال : « قد يخرج الطالح من ظهر الصالح » . أو قيل فى كتاب كريم : ان الميت قد يخرج من الحى . فان الصالح قد يخرج كذلك من ظهر الطالح ، وقد يخرج الحى من الميت .. وكذلك خرج امنحتب الرابع من ظهر امنحتب الثالث، وولد عبد المظهر والابهة كاهن الحق والعدل والمحبة ...

ـ حكمة الله وسنته فى خلقه ...

ـ أجل ! ولكن ويح نفسى على انسانية يسىء اليها المسىء طالما ، فيعيش ما عاش منعما ، ويمضى سالما غانما . حتى

اذا أراد أن يحسن اليها المحسن ، خذلوه وقتلوه أو عذبوه، ثم لا يسلم عرضه وذكره بعد موته من قالة السوء .. فلا هو انتفع بالعيش ، ولا نعم بحسن الاحدوثة بعد الموت .. فهو غارم فى الحياتين ، والفاجر الفاسق غانم فى الآخرة والأولى .. ولا حول ولا قوة الا بالله ...

ـ اهو العتب على الأيام ، ولا جدوى من العتاب ؟

ـ كلا ! ليس العتب على أبناء من غبر من الدهر ، وانما العتب على بعض من خلفوا السلف على تراثهم ، فلم يقسطوا .. والله يحب المقسطين .. فقد تلمسوا للرجل الزاهد العف المتجرد لتأييد الحق أوهاما من الاراجيف الكذاب ، ورموه بأقذع السباب ، فى غير موضع ولا مبرر ، الا استغراب بعض من خلق الله لمن ليس من معدنهم أو على جبلتهم

ـ على رسلك مولاتى ! فالجروح قصاص ! وقد أعطيت الفرصة بهذا البعث لكى تميطى اللثام عما التبس واستغلق على افهام فئة من الناس من امر زوجك العظيم ... فافيضى، ولئن حصحص الحق فانه واجد من يناضل دونه ، والله ينصر من ينصره ولو بعد حين ..

العلة الأولى

فاطبقت الملكة شفتيها اطباقة الكظيم ، واطرقت برهة ثم قالت :

ـ بماذا أجيبك ؟ فانى ان أنكرت قولك كفرت بالحق الذى دعا اليه اخناتون زوجي، وكفرت بالواحد الأحد الذى جعل له الصفات الحسنى وآلاء الخير واليمن جميعا ...

ـ اتقولين الواحد الأحد ؟ اتقولين آلاء الخير واليمن والصفات الحسنى ؟

ـ أجل .. كذلك دعا اخناتون الى الله ، وكذلك عبد

اخناتون الحق جل جلاله ، وكذلك علمنا ان الله خلق الكون، وأحب العالم ...

ــ مرحى ! مرحى ! انى لفى عجب لا ينتهى من عجب ..

ــ اذا عرف السبب بطل العجب .. ونعرف السبب اذا بدأنا بالبداية ، وتحرينا مراحلها ومراقيها الى أقصى النهاية . فليست تعرف الغايات القصوى الا اذا عرفت على حقيقتها عللها الأولى ، لنرى كيف أشرقت الانوار من أعماق الهاوية

ــ ذلك والله لو لم أسمعه من مولاتى ، ولو اعلم أن مولاتى أعرق تاريخا وأقدم سابقة ، لقلت انه كلام حكيم اليونان ومعلمها الاول « ارسطو » !

ــ ولم لا يكون من كلامى لا من كلام حكيم اليونان ذاك ؟

ــ انه الفلسفة الاولى ، علم العلل الأولى والغايات القصوى ، ابتدعتها اليونان ولم نعهدها فى المأثور عن الفراعين ...

ــ ألأن السقيا فى بلاد المشرق وربوع سوريا تعتمد على المطر ، ولا تعتمد عليه فى كنانة الله التى يرويها النيل ، يقال أن مصر لا تعرف الزراعة ، وان فلسطين وسوريا وحدهما تعرفان البذر والحصاد ؟..

ــ كلا وربى !

ــ كذلك ما تسمينها الحكمة الأولى ، علم العلل الأولى والغايات القصوى ، لم تعهد فى مصر لان الحاجة اليها مكفية بما يتيحه الدين المصرى القديم من تفسير وتعليم ، فهو كالنيل لا يرد ظامئا ولا يحيل على ماء الغمام امرأ من بنيه . أما اليونان ، فليس عندها ذلك المورد الزاخر المسمى بالدين المفسر المستقر المهيمن ، فاحتاجت النفوس الى التماس ريها من مورد آخر . ولعلك لا تجهلين أن عين شمس ومدينة الشمس ، التى تسكنينها فى هذا الزمان ، عرفت حصباؤها

وقع خطى أفلاطون أســتاذ ارسطو ، وخــير من تفلسـف على الاطلاق فى الأولين والآخرين ... كما عـرفت.أرض الكنانة من قبله « طاليس » دارجا فوقها يتلقى فتات العلم على كهان الشمس ...

موطن الداء

فقلت للملكة :

ــ آمنت يا مولاتى بالله ، وبأن الحـكمة نبتت فى وادى النيل .. وان فرحى بهذا اليقين ــ علم الله ــ لفرح عظيم ..

فابتسمت الملكة متلطفة وقالت :

ــ وكيف لا ؟ و«صوفى» بلغة اليونان هى «الحكمة» ؟ فلست يا ابنة الصعيد بالبذرة المجلوبة الى ديار آمون من بلاد الزيت والزيتون ! .

ــ حياك الله يا مولانى ... فهلا نبأتنى عن العلة الأولى عند اخناتون ؟

ــ نعم .. ولا ينبئك مثل خبير ، فقد فطن اخناتون الى تشعب الداء وتباين أعراضه،ولكنه فطن أيضا الى أن موطن ذلك الداء لابد واحد .. وان علاج الاعراض المتفرقة حمق وجهل وتخبط لا يفضى الى طائل ...

ــ والله يا مولاتى ، وما بى حاجة الى الايمان المغلظة ، ان هذا كلام لو كتب بالجواهر لكان دون حقه ، ولو عرفه أهل هذا الزمان لوفرت الانسانية على نفسها محاولات طائشـة ما أكثرها .. وكأنى بذلك الوصف لمناهج علاج الجماعات قد خرج لتوه على الناس ، وليس أثرا باقيا من ألوف السنين

ــ ويحك يا بنية ! هل نسيت سريعا قول شاعرك الضرير البصير :

وذهبــوا والبلاء باق ولم يزل داؤها العيـــاء
حكم جرى للمليك فينا ونحن فى الاصل أغبياء !

ـ عفوك ! ولكن حب الانسان لنفسه ينسيه أو يلهيه عما يعلم من مخازيه ..

ـ لقد بحث اخناتون عن موطن الداء ، وعلة العلل فى انحلال الناس خلقا ، فانحلال الخلق هو أصل كل انحلال وتصدع فى مقومات الجماعة حتى المادية والاقتصادية منها . فالناس يفترى قويهم على ضعيفهم اذا فسدوا ، وينصف قويهم اذا صلحوا ... ولن يعدلوا بغير ذلك من التنظيمات والحدود والقيود ، الا أن يزول التفاوت فى القوى كافة .. وتفاوت القوة هو سر الوجود ، وزواله لغرض الاصلاح مثله كمثل وقف سريان الدم فى جسم انسان توسلا الى كف الداء عن الجريان فيه !

ـ كلام لاريب عندى فيه ، وان اقام على الريب آخرون ..

ـ لا علينا ، فلن نهدى من أحببنا ، والله يهدى من يشاء !.. لقد بحث اخناتون عن العلل فى فساد النفوس ، فوجدها فى ضياع الثقة بقيم عليا للحياة تتعدى اللذة العاجلة المحصورة فى أضيق نطاق يمس الفرد من الناس . فكأنما الحياة خلسة مختلس ، أيهم بدد منها ما استطاع ونهب واضاع فهو الرابح المجلى ... فلا يبقى أحد من الناس على شىء ، ولا يتورع عن شىء ، لانه لا يرى شيئا وراء الغنم العاجل ومتاع الساعة الموقوت

الصرح المنهار

فقلت فى دهشة :

ـ والدين مولاتى ، دين مصر القديم ؟ أما قلت لى منذ برهة انه كالنيل لا يرد ظامئا ولا يحيل أحدا من بنيه وتابعيه على نبع للحكمة سواه ؟

ـ بلى ! وانه كذلك ..

ـ اذن ماذا دهى الناس ؟ أو ماذا دهى الدين ؟

ـــ وهاهما معا ما دهى فلسفة اليونان بعد نهضتها الأولى، فذهب الناس مذاهب السفسطة والانحلال والتهالك على اللذات . . . فذلك طور طبيعى يتلو طور النهوض فى الأمم ، ولاسيما فى أعقاب الحروب المدمرة ، وفى عصـــور الرخاء والترف . . فالامبراطورية المصرية الواسعة أتاحت للناس ان يكشفوا أن ثمة آلهة غير آلهتهـــم ، فتزعزع يقينهم فى سلطانها الشامل . . وكثر المال فسيطرت اللذة عليهم ، وانصرف كهان آمون أنفسهم الى الاســـتكثار من الاموال والنفائس . . . فانهار صرح ايمان الناس بدينهم القديم ، وعبدوا الصنم الجديد ، صنم العصر ، المصـــوغ من الذهب الرنان ! واذ ضاع الايمان بالدين ، ضاعت قيم الحياة العليا التى تتعدى الوجـــود الفردى المحدود الى خدمة النوع أو خدمة القومية . .

ــ ألا عاصم لهم غير الدين ؟

ــ انهم لم يعرفوا من قبل شيئا ينتظم فضائل الحيـــاة ومسائلها العليا غيرالدين،لهذا انهار بانهياره صرحالفضائل الاجتماعية والخلقيـــة جميعا ، الا فئة قليلة لم تبلغها الآفة الجديدة ، هى أدنى الطبقة الوسطى . . . فالعلة كلها ناجمة عن خمود جذوة الروحانية وطغيان المادية حتى غشت عـــلى بصائر الناس

النور الجديد

« فكان حقا اذن على من يلتمس نورا للناس وسط هذا الظلام الدامس ، أن يلتمســـه من ذلك النبع الخالد ، نبع الروح ، فيدفع بها شيطان المادية حتى يصرعه . وليكونن ذلك النور باثقا من المصدر الاصيل ، لا تشوبه شائبة مما اودى بانوار الدين القديم »

ــ مزيدا من النور يا مولاتى فى أمر هذا النور !

ـ ذلك لك : ان الاديان القديمة كانت زلفى الى مصدر الحياة عند العامة ، وكانت عند الخاصة تجسيما لقوى ذلك المصدر المتعددة ، قياسا على قوى البشر التى يعهدونها فى أنفسهم ، فقد تصوروا الفطرة الفاطرة على صورتهم

ـ تصور معهود فى جميع الشعوب ، وأخشى أن أقول فى جميع العهود .. فالناس فيما يتصورون عبيد ما ألفوا

ـ بذلك قامت أساطير الآلهة المتعددة ، وتناسى الناس رموزها مع تقادم العهد،فلما اتسعت الآفاق لم تعد تقنعهم تلك الصور ، كما يكبر الفتى فلا تقنعه الرشفة بعد الرشفة من ثدى أمه ، على بر ذلك الثدى به ، ويطلب ما يمضغه بقواطعه وأسنانه الحداد .. ثم فتنتهم الدنيا فلم يجدوا عاصما لهم منها بسند باق من دين متين .. ففطن اخناتون الى وجوب قيام ذلك الدين المتين ، باثقا من مصدر الحياة الأصيل غير مموه بالتجسيم والتشبيه ، بحيث يكون موضوع ذلك الدين بمأمن من الحدود ، والعجز ، والنقص . فلابد أن يتوفر له الشمول الذى يمتنع معه الشرك ، لأن الشرك حد ونقص ، والنقص لا يتفق وطبيعة الكمال . وكذلك أقام اخناتون صرح العقيدة على التوحيد الذى لا يعرف الشرك ، ولا يأتيه الشك ، وعلى التنزيه الذى لا يعتريه تشبيه ولا تمويه ...

والشمس وضحاها ..

فقلت فى عجب يكاد يشبه الانكار :

ـ مولاتى ، والشمس وضحاها ؟ أذلك أيضا من التنزيه الذى لا يعتريه تشبيه ؟ أليس « أتون » هو اله الشمس القديم ؟. أليس هو ذلك القرص الذى ترسم له أشعة تنتهى بأياد يتعبد أمامها اخناتون وتتعبدين ؟

ـ ليس أتون هو قرص الشمس يا بنية ، على سنة أهل

« ايون » أو عين شمس أو هليوبوليس ـ في لغة اليونان ـ كلا ، وانما هو « الحرارة التي وراء قرص الشمس » • ولو كانت لاخناتون لغة عصركم لقال : « انه القوة أو الطاقة التى تبعث النور فى قرص الشمس » • فقرص الشمس ليس هو الله ، ولكنه نافذة الله يطل منها على العالم ! وليس وقوف اخناتون أمام قرص الشمس عبادة وزلفى ، وانما هو تحية

ـ تحية مريبة !••

ـ ولماذا ؟ أتعرفين سنة النصارى فى التعبد ؟••

ـ أخالنى أعرفها •••

ـ أيريبك منهم أنهم يقفون أمام صليب من خشب يتخذونه قبلة لهم ورمزا لدينهم ؟ أيخالجك لهذا شك فى تنزيههم الله عن التشبيه ؟

ـ وهل ذلك كذلك ؟

ـ أجل •• وهل تعرفين حيرة الناس أيان يولوا وجوههم للعبـــادة ؟ لقد قيل لهم أن ولوا وجوهكم قبلة هى البيت الحرام الذى رفع قواعده اسماعيل بن ابراهيم••• فهل فى ذلك ما يريب أو يحمل على الشك فى تنزيه الله عن الحلول فى مكان دون مكان ؟

ـ كلا •••

ـ اذن لا يريبنك من اخناتون أن يستقبل الشمس، لانها أظهر نعم الله التى يتجلى بها على الخلق •• وانه ليسمى آتون لهذا « رب قرص الشمس » أو « مولى قرص الشـــمس » ، اشعارا بأنه شيء وراء ذلك الظاهر المنير

الخالق والخلق

فقلت وكان بى شيئا من ذلك الذى قالت :

ـ انها فيما أحسب أول دعوة لوحدانية الله بين الناس ،

وأول تنزيه له عن الشريك والشـــبيه .. من غير طريق الكتب المنزلة والوحي القدسي ..

ـ والبصائر يا بنية أليست من الله ؟ والعقول يا بنيـة أليست من الله ؟. أفي الله شك حتى يكون عرفانه عجبـــا يؤخذ له الناس ؟ . ان الجهــــل به ، على بيان جلاله ، هو الأحرى ان يقابل بالعجب والانكار !

ـ صدقت مولاتي .. فهذا ارسطو يقول بالمحرك الاول الذي يتحرك كل شيء في الكون حبا له وعشقا لكماله .. وهو عقل خالص ليس كمثله شيء

ـ ويك ! اين هذا من آتون ؟ ان اله ارســـطو صاحبك لا يشتغل بأمر الكون ، ولا يعنيه منه شيء ، ولا يفعل ولا يريد ، ولا يحب ولا يهب . فهو اقرب الى الانفعال بالكون منه الى الفعل فيه .. فهو معشوق من العـــالم ، وليس له بعد ذلك بالعالم صلة .. واله اليهود جبار ذو انتقام ، رب شعب واله قبيل .. العالم متوجس من غضبه أن يثور فلا يبقي ولا يذر . أما اله اخناتون فهو برغم سبقه في التاريخ على كل ذلك ردحا طويلا ، اله محب للعالم ، منعم ، رحيم ، حليم ، بر بالخلق جميعا ـ من انسان وبهيمة ونابتة ـ بر الأب المحب ببنيه الصغار ، حتى المعوج منهم والعاق ... فهو أول دين قبل المسيحية بألف سنة ونصف ألف نادى على رؤوس الاشهاد ان « الله محبة » وانه « هكذا أحب الله العالم ... » وانه كذلك ولا مراء سما بالتصوف وسبحات الروح الى افق لم يبلغه قبله أحد ، ولم يلحقه فيه لاحق الا قول ناسك من متصوفي الهند بعد ذلك بقرون طويلة ، هو حكيمهم سنقرة في منتصف المدة بين اخناتون والمسيح ، أي في القرن الثامن قبل الميلاد ..

وسكتت الملكة فترة قصيرة ، فقلت أستحثها :

ـ ما أسكتك يا مولاتي ؟..

ـ خاطرعجيب خطر لى ٠٠٠ألا يكون قول الهنودبالتناسخ صحيحا ؟

ـ وماذا أذكرك به ؟

ـ هذا التجريد العجيب بغير تلقين سابق ، وكأنه تلقى أسراره على يد اخناتون الذى سبقه بثمانية قرون ٠٠٠فهو يناجى ربه ، وكأنه يصـيح من أعماق روحـه المتجردة : « أستغفرك اللهم عن ثلاث : جعلت لك فى تأملك الصور وأنت بلا صورة ، وألصقت بك فى مدحك الصفات وأنت لا توصف ، وقصدت اليك فى الهياكل والمحـاريب وأنت حاضر أبدا فى كل مكان ! »

ـ الله الله ! ما ألطف الحس وأصدق النجوى !

نجوى آتون

فقالت الملكة :

ـ أجل ٠٠ ما ألطف الحس وأصدق النجوى ! وكذلك كانت نجوى اخناتون لآتون،الاله المجرد المنزه الذى تتبدى للناس قدرته ونعمه من وراء قرص الشمس ، قبلة النجوى ومحراب الترتيل ، لانهـا المظهر الاكبر لذلك المخبر الذى لا تدركه الابصار ، وهو نبع الحياة الخالد

ـ ألا أسمع منه شيئا ؟

ـ بلى وكرامة :

« أنت المشرق بالبهاء فى آفاق السماء
« شمسا حية منذ أول الأزل
« يتجلى نورك فى مشرق العالم
« فيفيض على الارض بهاؤك
« أيها البهى القوى العلى
« هذى أنوارك تغمر خليقتك جميعا
« فى أقطار الارض قاصيها ودانيها

« تجمعها كلها مكبلة بقيود محبتك
« لا تفرط فى أحد منها

▭

« تعاليت أيها المكنون الا عن آلائه
« يا من تستوى فى المغرب فكأن الموت لف الكون :
« فالناس نيام لو سلبوا لما أحسوا
« والضاريات تخرج من أوجارها
« وتدب الافاعى دبيبها المرهوب
« بيدك أمر الكون ، وهلاكه عليك هين
« لأنك أنت باريه ..
« فأنت الحياة ، ولا حياة الا بك

▭

« بك ينمو ويدب ما فى الارض من سائمة ونبت
« وتحت نورك النافذ يمرح السمك فى جوف اليم
« يا مبدع الأجنة فى الارحام
« يا جاعل الخصب فى أصلاب الرجال
« يا مطعم الجنين فى أحشاء أمه
« ونافخ نسمة الحياة فى أوصاله
« فاذا خرج الى الدنيا أنطقت لسانه
« ودبرت له حاجة معاشه

▭

« يا مبدع الفرخ فى البيضة
« ومانحه القدرة على الاكتمال فيها

« حتى اذا إكتمل أعنته على كسرها
« فيخرج منها مزقزقا يمرح هنا وهناك
« فرحا بالنور الذى وهبته اياه

□

« ما اعظم نعمك وآلاءك
« وان ما خفى علينا منها لأعظم
« أيها الواحد الأحد ، الذى تنزه عن الشريك
« لقد خلقت الارض كما شئت
« وليس موجود سواك
« فكل دابة على قوائمها ،
« وكل سابح فى اليم ،
« وكل محلق بجناح ،
« كلهم خليقتك سبحانك !
« برأت البلاد كافة
« وأرسيت كلا منها فى قراره المكين
« وقدرت الرزق للخلق أجمعين
« ثم جعلتهم شعوبا وقبائل أشتاتا
« وأنت وحدك واحد أحد »

مدينة الله

وسكتت الملكة ، وسكت انا كذلك لحظة ، فقـــد كنت مأخوذة بسحر ما سمعت ، ثم فتح الله على فقلت :

ـ سبحانه سبحانه ، وتعالى علوا كبيرا ... حقا ان من الشعر لحكمة ...

ـ وشاعر هو يابنية لايشق له غبار،وان عنى قوم بالشعر مثلبة لا تليق بذوى الاقدار والاخطار ...

ـ معاذ الله مولاتى .. انما هو شـــاعر بالمعنى الرفيع ، لا شائبة فى خلقه من نزق ، والشعراء صيادح الحياة ، فى بيانهم يتبدى من جلالها ما يتبدى فى الاقحوان والنسرين ، وما أدرى والله يا مولاتى ، بعد ذلك البيان المشرق والسحر المتدفق ، اى امجاد فرعون كانت آثر لديه : أمجاد الشـاعر أم امجاد العاهل القادر والمهيمن الآمر ؟

ـ الشاعر يا بنية الشاعر .. فقد خلت من قبل اخناتون الملوك ، ولكن ليس فى الفراعين من له نفس اخناتون المرهفة وسريرته الصادقة

ـ ما أحسبه الا قد فتن الناس بهذا السحر الحلال ...

ـ واها له ! لقد استشرى الفساد فى طيبة ، واضطر الملك النبى أن ينجو بدينه مهاجرا كمـــا هاجر سائر أصحاب الرسالات العلوية ...

ـ وى ! انه الملك !

ـ وان، فالعقائد الموروثة، وانظمة الجماعات المرتبةعلىتلك العقائد أقوى سلطانا لدى النـــاس من أمر السلطان ... فناهيك اذن وقد طامن السلطان من شأن نفسه ونزل عن محله الرفيع

ـ ماذا ؟

ـ لقد عهد الناس فرعون ابن آمون ، ودرجوا على أنيروه ظل الاله ، وان يلقاهم فرعون لقاء الآلهة للعبيد.. فاذا ذلك الاله ينكر الالوهة على نفسه ، وينزل عنها الى مســـتوى البشر ، غير مستبق من الالوهة الا صفـــة الرسالة وامانة البلاغ المبين ... فلم يجد اخناتون بدا من الهجرة من طيبة ليجعـــل لربه العلى مثابا طاهرا لا يشركه فيه رجس من الاصنام ... فارتقى النيل ، حتى وجد تلك المثابة فى جنة من جنان الله لم تسكن من قبل ، عنـــد « تل العمارنة » .

فأقام هناك مدينة أفق الشمس فى حضن جبلها الاشم ..
واحتفل بتدشينها ، وبارك من حولها ، وجعلها حرما لا تطؤه
قدم مشرك بآتون ، وأقام فيها قصره الى جوار الهيكل ،
وبنى للناس على وجه السرعة بيوتهم فى نسق رائع معنيا
بجمال كل شيء فيها

ــ وهل يحرص الشاعر على شيء حرصه على الجمال؟..

ــ بل قولى : هل يفترق حس الجمال عن حس التدين فى
الانسان ؟ ان الذوق هو منبع كل حس بالجمال الظاهر
والجمال الاسمى على السواء . ولا تصدقى أن متذوقا
أصيلا للجمال يمكن ان يكون من أصحاب التشاؤم ودعاة
اليأس والحزن والعزوف عن المسرات ... فهذا اخناتون
على ضعف تكوينه ، وشحوب لونه ، ووراثته المنكودة عن
ابيه ، والحاح الصرع عليه ذلك الالحاح الذى يعرفه أكثر
العباقرة ذوى السبحات المذكورة فى عالم الروح والفن ...
نراه مع هذا لايبشر بشيء كما يبشر بالسرور والمرح والغبطة،
لان لباب الحياة هو السرور ... وان تسبيحه لربه لا يحفل
بشيء كما يحفل بالحركة المعبرة عند جميع الكائنات عن
« فرح الحياة »

ــ ومن ذا الذى هاجر معه الى « مدينة الله » الجديدة ؟

ــ بقى المحافظون على ما وجدوا عليه أباءهم ، لانهم
ناعمون فى ظل النظام القديم .. وتبعه فى مهجره من آمن
به وأكثرهم ممن لم يكونوا شيئا مذكورا ، فجعلهم أخناتون
شيئا مذكورا ... وأول هؤلاء صفيه «مريرع» الذى جعله
كاهن آتون الاعظم .. حتى اذا استقر الامر فى العاصمة
الناشئة ، ضرب اخناتون ضربته ، فأبطل كل عبادة سوى
عبادة آتون،محطما أصنامها،مشردا كهانها ، مسفها أحلامهم،
وتعقبهم بعذاب اليم ، حتى أوشك الا يبقى من عبادة
الاصنام على اثر ...



لعنة الذهب

لو انصف الدهر

فقلت للملكة :

ــ أعظم بها من وثبة نحو نقاء العقيدة، وكمال الناموس، وقيام الجماعة على التعاطف والتجاوب بين الكون والانسان ...

فقالت الملكة :

ــ وليس للعقيدة ، اى عقيدة ، من معنى سوى تفسير الصلة بين الكون وضمير الانسان . وانما تتفاوت العقائد رقيا وسموا بتفاوت نجاحها فى تقرير تلك الصلة

ــ والعقيدة الصالحة ولا شك هى تلك التى تقيم صلة الكون بالانسان على الخير لا على الرهبة والفزع وعلى العناية الحكيمة لا على هوى آلهة أو قوى طبيعية لا ضابط لها .. فلا ريب ان عقيدة اخناتون التى دعا الناس اليها عقيدة اكمل مما سبقها من العقائد بما لايقاس . فقد نقل الناس من الشرك الى الوحدانية ، ومن خصوصية الآلهة اى اختصاصها بملكة معينة من الملكات والقوى ، وبشعب معين هو شعب مصر ، فجعل الله رب الكون أجمع ، وصاحب القوى والنعم ظاهرها وخافيها ، ونزهه عن الهوى والقسوة والاستبداد ، فالخليقة تحت سلطانه تسعى الى السرور ولا تعيش فى رهبة وفزع مقيم من بطشه ومقته

ــ انصفت يابنية .. ولو أنصف الدهر كما أنصفت لأدرك الناس هذا الذى أدركت، ولرأوا فى الدين الجديد نورا ينبغى أن يصونوه ممن يريدون أن يطفئوه بأفواههم غيظا من الحق والخير وحنقا .. ولكانت مصر قد انتقلت من الضلالة الى

الرشد ، ومن الغي الى البر ، ومن الفساد وأكل القوى الضعيف الى خطة عادلة وحكومة تعدل بين الناس ...

ولكن الدهر لم ينصف ذلك الدين ، وتألبت على اخفاق دعوته عوامل شتى ، ترجع الى اثنتين : غفلة العامة وأهواء من يستغلونهم ويسخرونهم على اختلاف ضروب الاستغلال والتسخير ...

لعنة الذهب

فقلت للملكة :

ــ ان الغفلة لا تقاس الا بمقياس مؤثرات المستغفلين ، من المستغلين والحانقين ، فما دعوى هؤلاء ؟

ــ أول هؤلاء يا بنية هم عبيد الذهب ، أو سادة الذهب واصحاب المال ، فالاسمان مترادفان ...

ــ مترادفان ؟ وكيف يتساوى العبيد والسادة ، والمالك والمملوك ؟ ..

ــ بل يستويان ، وان بدا ذلك غريبا لاول وهلة ..

ــ وكيف كان ذلك ؟

ــ كلاهما يا بنية يعيش للغنى والثراء ، ولا يحفل بشيء غير تكديس المال أو تنميته ما استطاع .. فكلما اجتمع اليه قدر من المال كبير ، حسب نفسه قد ملك ما اشتهى ، وهو فى الواقع مملوك لما يملك ، مسخر فى رعايته وصيانته ، ولو كلفه ذلك خنق ضميره وصم أذنيه وطمس عينيه . فهو فى عرف الناس وعرف نفسه سيد الذهب وصاحب المال، وانما هو فى واقع الامر عبد الذهب وخادمه المسخر ...

ــ آمنت بالله !..

ــ ومن عجب أنك لم تعرفى هذا وقد سبقت فيه الاقوال ، فى عصركم وفيما سبق عصركم ، وشاعت فى أمر الذهب وسلطانه الاساطير ، التى لا تعدو الحقيقة فى كثير ...

ـ وما ذاك يا مولاتى ؟ فان عندك علم الاولين والآخرين ، ونحن نحسبك مجرد تمثال فى متحف برلين ...

فقالت الملكة باسمة :

ـ أول تلك الاساطير ، أسطورة مما حفظ عن أصحابك الاغريق ، أيام مجدهم العريق . فقد زعموا أنه كان فى بعض البلدان ملك قريب من قلوب الآلهة ، فسألوه أن يتمنى عليهم أمنية تجاب بلا قيد ولا شرط ... وكان الذهب ـ ولا يزال ـ فتنة الناس وشهوة النفوس ، لا يتشبع منه متخم ولا محروم . فتمنى ذلك الملك ، وأظن أنه كان يسمى «ميدا» أن يعطى نعمة الذهب ، فلا يلمس شيئا أيا كان الا استحال لتوه ذهبا ... فكان له ما أراد . ففرح فرحا لا نظير له بهذه المنة العظمى التى حسبها أعظم ما أتيح للبشر الفانين من نعم الآلهة ، وأيقن أنه سيكون سعيدا بها سعادة لا تشبهها سعادة فى المشرق والمغرب، فى الماضى وفيما يجىء من الايام..
وفتح الملك ميدا عينيه ذلك الصباح، فشك فى حقيقة الرؤيا ، ونفض عن نفسه الغطاء ، فاذا الغطاء يستحيل بين يديه ذهبا خالصا ! فكاد يصيح دهشة وفرحا لولا بقية من وقار الملك، أو لولا المفاجأة ، فتقلب فى فراشه وهم بلبس خفه فى قدميه، فاذا الخف يستحيل فى قدميه الى ذهب... فأيقن أن رؤياه لم تكن أضغاث أحلام ، فجعل يهتف بامرأته الحبيبة، فجاءت الملكة من حجرتها على عجل ، فأخذها بين ذراعيه وهو فى نشوة الفرح والحماسة ليقبلها ... فاذا الملكة الحسناء تستحيل بين ذراعيه الى تمثال من الذهب ...

ـ رباه !

ـ فذعر « ميدا » ، وكاد يجن ، لانه أدرك فى هذه الساعة مبلغ النقمة التي تكمن فى هذه النعمة التى تمناها . وجعل يستصرخ الآلهة أن تسترد نعمتها وترد اليه زوجته ، وتأخذ ما لديه من المال والثراء فلا يبقى له من ذلك شىء . ولكن

صياحه ذهب أدراج الرياح ... ولم يفده الا تجمع اهل القصر وخدمه حوله وهو يصيح كمن به مس .. وان به علم الله لمسا من جنـــون ذلك الذهب . وحاول أولاده أن يقربوه ليهدئوا من روعه ، فجعـــل يصيح فى وجوههم أن ابتعدوا ...

ــ موقف هائل !

ــ الى اقصى حد .! فتصورى فزع الامراء أبنائه اذ رأوا أمهم دمية جامدة بعد أن كانت فتنة حية . وفزع رجال الحاشية وهم يرون مالا يفقهون ، ويسمعون الملك يهـذى بما لا يعقلون ... ولكنهم حسموا الشك باليقين حين تطوع ذو نجدة منهم فقدم للملك الهائج كأسا من الماء ، وتنـــاول الملك الكأس فلم تتحول الى ذهب ، لانها كانت من الذهب أصلا ، ولكنه ما رفعها الى شفتيه ليعب منها حتى يطفىء النار المشبوبة فى جوفه ، حتى جمد الماء واســـتحال الى نضار ... فخر مغشيا عليه ، لانه أيقن من هلاكه ، وانه لا نجاة له من عقبى شهوته التى تمناها ملحا وتلقاها فرحا... فلا سبيل له الى طعام أو شراب ، وقد تمنى جرعة ماء وكسرة خبز قفار بما فى حوزته من نضار ... ولكن هيهات! وتمنى ضمة من ولده وبنته يودعهما قبل موته ، ولكنه كان ينظر اليهما حسيرا ملوما ، يبكيان ويبكى ،وهو يقاوم مقاومة يائسـة حتى لا يلثمهما فى ساعته الاخيرة ... فمات معذبا أشنع ميتة ماتها انسان قط ، وبالداء الذى حسبه ترياق سعادة لا تنال ...

عنصر الجحيم ..

فقلت للملكة مأخوذة بما سمعت :

ــ لا فض فوك يا مولاتى ! ما أبدع الرواية ، وما أعذب الحديث وأعظم الراوية !

ــ وهل سمعت الرواية الصادقة التمثيل، رواية «أندرسن» اديب الدنمركة فى العصر الحديث ، فقد ساق الحديث الى الاطفال فى أساطير هى أولى بالكبار من الناس فى هذا الزمن الذى طمست فيه الضمائر والنفوس ؟

ــ كلى آذان يا مولاتى ..

ــ زعموا أن الشياطين أرادت أن تكيد للنـــــاس كيدها الاعظم ، فقررت أن تنقل الى الارض عنصرا مدمرا تختلسه من عناصر جهنم .. واختلست ذلك العنصر المشـــــئوم ، وهبطت به من آفاق السماء الى الارض . ولكن شهابا ثاقبا كان لها بالمرصاد ، فهاجمها قبل أن تنزل دنيا العبـــاد ، فأحرقها ، ووقع العنصر الجهنمى من بين يديهـــا ، فلاقاه الشهاب ، فتبدد ذرات دقيقة ملأت جو الارض ، ونزل بعض منه فى وديانها وقفارها . أما ما وقع فى الوديان والقفـــار والجبال فصار جرثومة مناجم الذهب التى نعرفها . وأما ما طار فى الهواء ، فدخل بعضه فى آذان الناس، ودخل بعضه فى عيونهم ، ونفذ بعضه الى ألسنتهم ، وتسرب بعضه مع ريقهم الى أجوافهم وقلوبهم ...

ــ لا حول ولا قوة الا بالله !

ــ أجل ، فمن دخل فى أذنه شىء منه لم يعد يصيخ السمع الا لحديث المال والثراء، ويصم اذنيه عما عدا ذلك من النداء. ومن دخل عينيه شىء منه لم يعد يرى فى الدنيا الا صــفرة الذهب اللماع ، ولا يرى عدا ذلك شيئا مما تحفل به الحياة ن الجمال الرائع والفن الرفيع . ومن دخل فى فمه شىء من لك العنصر لم يعد يتحدث الا عن المال ، ولا يتذوق شيئـــا ن طعوم الحيـــــاة الا لذة الثراء ... وأما من نفذ العنصر شئوم الى قلبه والعياذ بالله من البلاء ، فذلك من ختم الله لى قلبه ، فلا يشعر بشعور بنى آدم من عطف ، أو حب ، رحمة ، أو فتنة حس ، أو سحر بيان ، أو جمال صدقة ،

أو صلة رحم ورابطة دم ... لان قلبه قد تحجر ، وصار هيكلا من الذهب ، لا يسكنه الا صنم الذهب ...
فقلت للملكة :

ـ صدق الشاعر وربى ...

ـ أجل صدق وما بغى ، فكذلك كان حزب البغى من عبيد الذهب على أيام اخناتون .. نفذ الى قلوبهم عنصر جهنم ، فلم يكن لهم شاغل الا مقاومة دعوة الحق التى تقوض سلطانهم وتنكس صنمهم الملعون ..

ـ وهل كان اخناتون عازما على مصادرة أموالهم ؟

ـ كلا ونعم ! فهو لا يتعرض لما لديهم فعلا من المال ، ولكنه يبشر باله محب عطوف يرعى الناس كافة ، ويريد الخير للناس كافة .. فلا بد من توزيع الخيرات الالهية بين الناس بالعدل ، كما تشرق الشمس على الكوخ والقصر بقدر متساو .. ففى نيته لو امتد به الاجل ان يرفع الحدود التى تفصل بين الحقول ، لان الارض أرض الله ، يأكل منها أبناؤه ـ اى خليقته المحبوبة ـ بما يرزقهم بعد أن يفلحوها بعرقهم . فكيف يرضى المتخمون من عبيد الذهب عن هذا الرأى ؟ وكيف يسلمون بأن الناس سواسية فى الحظوة عند الله لا يفرق بين أحد منهم ؟ وكيف يؤمنون بدين يحطم صنمهم ويقيم عقيدة الروح على أطلال المادية الجامدة والانانية الشوهاء ؟ كلا ! لن يسلموا الا كارهين ، ولن يقعدهم شىء عن مقاومة النور الجديد وصده بما أوتوا من قوة وحول

أصحاب الرياستين

فقلت :

ـ أمر هؤلاء واضح بين .. ومن الطبيعى أن يقفوا هذا الموقف ، فما خطب سائر طوائف الناس ؟

ـ يأتى بعد هؤلاء القلة النافذة السلطان من عبيد الم
او ملوك المال ، قلة أخرى اشد خطـــرا وأعظم قدرا :
أصحاب الرياستين ، وعبيد الصنمين ...

ـ ومن هؤلاء ؟ ..

ـ كهان آمون : من لهم سلطان الدين ونفوذه السا.
ولهم الى هذا سلطان المال وجاه السياسة .. عظم نفـ
معبودهم ، اله طيبة ، منذ قام أمراء هذا البلد بزعامة ـ
التحرير فطردوا الهكسوس من مصر ، ثم طاردوهم فى ؛
الارض حتى دانت لهـم تلك الامبراطورية الواسـعة
أطراف الفرات الاعلى الى الشلال الرابع من بلاد السم
... فصارت لربهم الزعامة بين الارباب ، وكثرت أوقافه
مر الاجيال ، حتى صار له خير ما فى الوادى من الخ
ذات الثمر ، وصارت له المتاجر الكثيرة ، فاجتمع لكهانه سـ
الدين وتهاويل دعاواه عند العامة ، وسلطان المال المتجـ
قبضة واحدة منظمة ، فأحسنوا الدعاية ، وصرف الا
للاتباع والمبشرين والمروجين ، واستطاعوا أن يسخروا
الدين والمال فى السيطرة على السياسة أيضا ، فملأوا الد و
بصنائعهم ، وملأوا القصر بعيونهم ، وصاروا يضارعون فر
فى كل شيء ، لولا أن لفرعون الجند الكثير ، ولشخصيت
الدينية بوصفه سليل الآلهة قدسية تحصنه من العد ،
أو تجعل ذلك العدوان غير مأمون العاقبة على الاقل
فأولئك الكهان عصبة منظمة محكمة ، لها أسرارها وهي
فهم دولة فى الدولة ..

ـ وكيف صبر الفراعين الاقوياء على هذه المطاولة ؟

ـ لم يصبروا عليها ، ولكنهم كانوا على ضيقهم بهالايـ
لهم مخرجا ولا مخلصا من هذا الاخطبوط المتشعب السـ
.. حتى اذا جاء اخناتون واعلن دينه الجديد ، وجدوا ـ

يفل ما لديهم من الحديد ، بضاعته من بضاعتهم ولكنها أنقى عنصرا واشرف مصدرا . ورأوا سيفا قاطعا يهدد دينهم ويهدد مالهم ، ويوشك ان يقضى على صنميهم : صنم الدين وصنم الذهب .. فهل كانوا مذعنين مستسلمين ؟

ــ هذا غير معقول ..

ــ كذلك هبوا ، وقد وضعوا يدهم فى يد رجال المال وأهل الغنى ــ وهم ايضا فى الواقع رأس طبقة الاغنياء نفسها ــ لكى يصدوا هذا الخطر الداهم . فجعلوا يسخرون سلطانهم الدينى على السذج ، ويبذلون الاموال عن سعة فى سبيل تشويه ذلك الدين الجديد ، وتسفيه صاحبه وتجريح شرفه وعقله لدى الشعب المخدوع . واشتد ذلك العداء بعد أن هجر اخناتون طيبة ، وسكن مدينة آتون (قرب ملوى الآن) وابطل جميع العبادات ، ولا سيما عبادة اله طيبه آمون ، فصادر الاموال ، وحطم الاصنام واقفل المعابد ، وأصبح الصراع بين آمون وآتون صراع حياة أو موت ..

فقلت لنفرتيتى :

ــ ذلك موقف اهل المال ، واهل الدين ، فكيف كان أوساط الناس ؟ ..

فتنهدت الملكة وقالت :

ــ قيل خير الامور الوسط ، ولكن كثيرا مايكون الوسط شر الامور جميعا ، ولاسيما ادنى الوسط من أهل الحواضر ، لانهم أهل الطموح والطمع ، فيهم سوءات الادنين والاعلين على السواء ...

ــ هل أفهم من هذا انهم كانوا حربا على الدين الجديد ، الذى يزمع أن يزيل من وجههم من يسدون عليهم المنافذ من أهل اليسار من مدنيين وكهان ؟

ــ لقد كان منهم الاعداء ومنهم الانصار .. ولكن الفريقين

جميعا كانوا حربا على الدين الجديد ، ان عمدا وان عفوا ...

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ لقد علمنا ان الدين الجديد لم يكن ليستهوى أهل اليسار والجاه التليد ، فكان حقيقا أن يستهوى قوما من المستضعفين أو المغمورين من أدنى الوسط فى طبقات المجتمع ، من طلاب العلم وصغار المثقفين .. وأن يكون أسبق هؤلاء الى الدخول فيه النهازون والوصوليون ، ممن يرونه فرصة مواتية الى الجاه فى الدولة الجديدة ، تصطنعهم وتمنحهم الرتب والالقاب

ـ مولاتى ! تلك سنة الدول فى كل عصر الى يومنا الحاضر ، فالذى يقيم نظاما جديدا ، أو سلالة ملكية جديدة ، لا يأمن على دولته من رجال النظام البائد ، لانهم غير مدينين للنظام الجديد بشىء . فيصطنع رجالا لم يكونوا شيئا من قبل ، لكى يتفانوا فى خدمة النظام الجديد ، لانهم مدينون له بكيانهم المستحدث وجاههم الطريف .. فوجودهم رهن ببقائه وقوته . فلا عجب أن يذودوا عنه مخلصين

ـ أو منتفعين مأجورين ، همهم ماكسبوا وما نهبوا . أولئك تنقصهم ميزات السلالات العريقة فى النبل ، لانهم مرتزقة بغير أحساب .. انظرى من جعلهم بونابرت ملوكا وأمراء ودوقات بعد أن كانوا من الهمل والرعاع . أتراهم ظلوا على عهده من بعد أن زال ملكه ؟

ـ كلا يا مولاتى ! بل ان منهم ـ مثل برنادوت ـ من خانه وهو فى الميدان ، ومنهم من ترامى تحت أقدام الملك الجديد لكى يبقى على جاهه وماله ... فاحترام الوصولى للدولة القديمة أكبر دائما من احترامه للدولة الجديدة ...

ـ صدقت يا بنية . لان الدولة القديمة كانت أكبر منه جدا اذ كان فيها حقيرا ، والدولة الجديدة ليست أكبر منه مطلقا لانه صار فيها شيئا خطيرا ... ومن هذا الجانب يأتى

حنين الوصوليين الى كسب رضى الدولة القديمة ، توكيدا لاعتبارهم الجديد ، ولكي يثبتوا لأنفسهم انهم صاروا اصحاب شأن بنفس المقياس الذى كانوا به ولا شأن لهم ، وليس نابليون الا مثلا من مئات الامثال ، فى كل بلد وفى كل جيل

ـ هـذا شأن الاولياء من الوصوليين .. وهو مفهوم ومعقول . فكيف كان يا مولاتى من هؤلاء امراء لم يدخلوا فى الدين الجديد ، فضيعوا الفرصة على أنفسهم ؟

ـ ليس كل وصولى حقيقا أن يصل ، ولا كل نهاز للفرصة يدرك الفرصة حقا . فالجاه سبيله ضيق ، فمن أفلح من الوصوليين ونبه له شأن فى الدولة الجديدة ، أثار حسد من كانوا مثله ، أو من كانوا يحسبون أنفسهم مثله او خيرا منه ... وان شاعركم العربى لصادق حين يقول فى هذا الصدد :

كل العداوات قد ترجى ازالتها الاعداوة من عاداك من حسد!

ـ لله در أبى الطيب ! ذلك والله هو القول الحكيم !

ـ اجل ! فليست ثمة عداوة هى ابعث للتطرف فى الخصومة من الحسد الذى ينشب بين الانداد . وان ذلك العداء الاكبر لجدير ان يجعل الحاسدين يستميتون فى حرب الدولة الجديدة ، حتى ينهار جاه من يحسدونهم بانهيارها ...

ـ ولكن الا يعقلون ان الدولة الجديدة ترفع الظلم عن المستضعفين وهم منهم ، وتزيل كابوس الاستغلال والعسف الجاثم على صدورهم ، ممثلا فى كبار الاثرياء وفجرة الكهان من رهط آمون ؟..

ـ أتقولين هل لايعقلون ؟ وهل كان للحسد عقل يوما من الايام يا بنية ؟ ان الحسود كالعاشق ، كلاهما لاعقل له !

انتقاض الاطراف

فقلت :

ــ لقد اجتمعت على حرب الدين الجديد شياطين المال والشعوذة والحسد . . . فما أحرى سواد الناس ان يضلوا وراء هؤلاء الغواة . . .

فقالت الملكة :

ــ مهلا ! لم يات أوان النظر فى أمر الشعب وما كان منه مع الدين الجديد . فتلك الشياطين الثلاثة ، شياطين المال والشعوذة والحسد انما تعمل فى الداخل ، على ضفاف النيل . ولكن ثمة عوامل كانت تفعل فعلها فى اطراف الدولة ، وأجزاء الامبراطورية المترامية

ــ لقد علمت يامولاتى ان امر الامبراطورية قد جنح الى الاهمال والتواكل فى عهد ابيك امنحتب الثالث ، وانه كان لايعنيه من اماراتها الا ما تفىء عليه من مال وجوهر ونساء حسان . . . وانه كان يتالف قلوب فريق من الامراء ليشترى ولاءهم احيانا

ــ كذلك كان الحال . . وهو على عهد اخناتون كان أدعى الى الضياع مما كان على عهد ابيه ، لا لعيب فى اخناتون ، بل لمزية من اكبر المزايا اذا نظرنا الى الامر بمقياس انسانى رفيع

ــ وما تلك المزية التى اعقبت بلية ؟ . .

ــ ان هذا الملك كان رسول دين يقول بالتوحيد، وبالعالمية فى العقيدة والوجود ، لا تعرف ديانته التمييز بين اللغات والحدود . . فهو لهذا حرى ان يكره العنت والاستبداد ، وان يكون البشير الاول بالتنزيه والتجريد ، وبحق تقرير المصير للشعوب جميعا . فلم يكن قلبه يطاوعه ولا ضميره يسمح له بارغام الناس واكراههم على الخضوع لسلطان يكرهونه ، ولو كان هذا السلطان سلطانه هو !

ــ ما أسمى النظرة واقدس الفطرة !

ــ لولا انها طفرة !

ــ ولكنها تستهدف محو الاعنات والاثرة ...

ــ وان ! فالناس عبيد ما ألفوا ، ولوكانوا كلهم كاخناتون، لما احتاجوا لاسناد الدعوة الى اخناتون . فالسقاء لايطلب ولا يذكر حيث الماء قريب ميسر ... فضياع الامبراطورية والتشاغل عن حفظها منكر عنـد المنفعين بامتلاكها ليس بعده منكر ، لأنه تضييع منافع خاصة ، ولأنه أيضا جناية على القومية والمجد الوطنى ، أو هكذا يتسنى للمغرض أن يقول ويعيد ، فيؤلب الناس ويستنفر القلوب الى الحقد على « الخائن المفرط الذى بدد ميراث الاجداد »

ــ ياله من موقف شائك ...

ــ اجل ! وابعد من هذا فى الحرج ان كثيرين من الامراء رأوا ان الفرصة مواتية للخيانة . أو لعلهم آنسوا فى فرعون ضعفا أو اهمالا لحماية أطراف الدولة ، فأوجسوا من هجوم الحثيين وغيرهم ، فيؤخذون أخذا شديدا ، فمالوا الىجانبهم وانحازوا اليهم ... وكان أشهرهم فى ذلك المسلك « عزيرو ابن عبد شراة » صاحب الاموريين ، الذى ظل يخادع فرعون ويمنيه بالولاء ، ثم انحدر مع الحثيين فانتزعا من مصر معظم ملك الشام وفلسطين لقمة سائغة ، لأن فرعون كانمشغولا بفتن الداخل عن نجدة من استنجد به من ولاته المخلصين .. حتى اذا أفاق على الكارثة بعث اليهم جيشا صغيرا لم يصمد للعدو طويلا ...

ــ وى ! وفيم الجيـش اذا كان يؤمن بالحرية لجميـع الشعوب ؟

ــ وهل هى ثورة أهلية فى طلب الحرية ؟ كلا ! فلطالمـا استنجد به الاهلون ان يحميهم من غزو الحثيين .. ثم ان

اخناتون لم يكن مفرطا فى الامبراطورية طواعية ، بل لعله كان يميل الى الاحتفاظ بها لخدمة هدفه الاسمى ...

ـ عجبا ! وهل يخدم التوحيد والحرية والعدل الاجتماعى بالفتح والاستعمار ؟ كيف يتفق هذان ؟..

ـ بل يتفقان ! فان آتون اله الناس كافة وليس اله مصر وحدها ، فادعى لنشر عقيدته فى الخافقين ان يكون تحت سلطانه الخافقان . بيد ان فتن الداخل ، وعبء الدعوة الجديدة عجلا بفقدان هذا الامل الكبير ، فاجتمع عليه كرب الخارج والداخل ...

الغفلة الكبرى

فلم استطع منع حسرة خالجت نفسي لسوء حظ هذا الرجل الذى جرد نفسه للحق والخير ، فاخطاه التوفيق فى كل أمر ، وقلت لنفرتيتى :

ـ ما اقساها محنة ، فليس فى كل ما اكتنفه موضع لمسرة أو استبشار

ـ وهل نسيت الايمان يابنية ؟ ان اخناتون كان أشد الناس يقينا بما وكل به نفسه من أمر هذا الدين ، فاما اظهره أو هلك دونه .. وان ما علمت من أمر طوائف الرعية فى مصر والشام هو تألب الاهواء على الحق الذى لا يعرف الهوى ... ولكن الاهواء لا تتم وحدها بغير عنصر الغفلة فى سواد الناس . وقد تم هذا العنصر واكتمل فى مصر ايام اخناتون . فكل سبب كان يدعو الشعب المصرى لمؤازرة اخناتون والحذر من ذوى الاغراض كهانا وثراة ومثقفين ، لأن اخناتون كان يحارب هؤلاء انتصارا لسواد هذا الناس .. فاذا هذه الاسباب نفسها هى التى تجعل سواد الناس يمالئون أهل الهوى ضد اخناتون : فيصدقون الكهان انه كافر ، ويصدقون الاغنياء انه سفيه فاجر ، ويصدقون المثقفين انه خائن للامانة مهدر لمجد توارثته الاجيال كابرا عن كابر

اصل الداء

فقلت مستفسرة :

ــ انى أعلم ان غفلة الشعب هى أعدى أعدائه ومجتمع أدوائه . وانه بغير يقظة الامة لاخير لها فى شىء ، وليس أجمع لهذا الامر من كلمة الامام محمد عبده : « اذا فقدت الامة حرية رأيها وشجاعة ايمانها فلا خير لها فى اسقلال ولا فى دستور » ولكن للغفلة فى أزمة اخناتون سببا خاصا ولاريب ، لأن دواعى البيان المستقيم لم تكن تنقص فرعون وأعوانه ومبشريه . فكيف مال الناس عنه وجهلوا حقيقته ؟

ــ لأنهم لم يفهموه .. اجل لم يفهموه على كثرة وسائله فى النفهيم ، وعلى وضوح أمره بحيث لايحتاج الى ايضاح لدى عقل مستقيم .. فالمنطق والمصلحة كلاهما كانا مجتمعين لدى الشعب المصرى لتأييده واتباعه ، لولا اختلاف الطبائع وغرابة المعدن ...

ــ اى طبائع وأى معدن ؟

ــ معدن الروح العظيم اخناتون .. فهو معدن غريب لايألفه معدن عامة الناس .. فهو كالطير الغريب لايقبله سائر الطير فى الحظيرة فيوسعه نكالا ... وهل أغرب عند الناس منه وقد فطروا على الانانية والطمع ، فلا ينتظرون من قادر ان يتورع ، ولا هم يفهمونه اذا استطاع فامتنع أو تمنع .. لأنهم لو قدروا لما آثروا العفة ، فكيف يفهمون من يعف وهو قادر ليس فوق سلطانه رادع ؟.. هذا هو الداء الاصيل ، والعلة الخفية وراء جميع العلل التى قد تفسر بها رفض الناس لدعوة اخناتون .. وبغير هذا الاستغراب ــ والانسان عدو ما يجهل ــ لم يكن يقدر نجاح لدعاية أعدائه وارجافهم ...

وسكتت الملكة لحظة ثم ندت عنها ضحكة خافتة ، فقلت :

ـــ اضحك الله سنك يامولاتى ..

فقالت وهى لاتزال تضحك :

ـــ هو شيء من باب « منطق العواطف » ، وهو من أحفل الابواب بالمفارقات فى حياة الانسان الحافلة بالاعاجيب

ـــ وما ذاك يامولاتى ؟

ـــ ان فرعون كان الها للمصريين منظورا ، ينوب عن الآلهة المتوارية بحجاب فى عالم الارباب ، فكان المصرى من عامة الناس يرى له فى فرعون ربا ، والرب أعلى مراتب الوجود ولا مراء . حتى جاء اخناتون فقال : « لست ربكم الاعلى ! ما انا الا بشر ! انى انسان ورسول ، ولست باله ! فلا تعبدوا الا الهى والهكم الواحد الاحد » فساءهم منه هذا المقال

ـــ عجبا ! انه خلصهم من عبودية سخيفة لملك هو بشر مثلهم .. !

ـــ وهذا هو موضع المفارقة فى منطق العواطف : فان الرجل منهم وقع فى نفسه انه خرج من هذه الدعوة بصفقة المغبون : كان ملكه الها ، فصار مجرد انسان ! كان يملك الها ، فاصبحت هذه البضاعة التى كان يملكها وقد نقصت قيمتها كثيرا ... وما أشبه هذا بالخادم الذى يسخطه أن يكتشف ان سيده موظف فى الديوان وقد كان يحسبه من الوزراء ... فمثل هذه النفوس تكبر فى نظر نفسها اذا كبر سادتها ، فاذا صغروا شعرت انها تضاءلت بعد عزة ، وتطامنت بعد شموخ ...

العزة بالاثم

فصحت مغيظة محنقة :

ـــ انها العبودية يامولاتى ...

ـــ وهذا أسوأ ما فى احوال المستعبدين . فان كل غل

يحطم ، الا ما كان مفروضا من داخل ، لأنه جزء من فطرة الراسف فيه ...

— ولكن هل كان كل الناس على هذا الفرار ؟ ..

— كلا ... فمنهم من ابى واستكبر ، لأنه قد اخذته العزة بالاثم ، فقد كان حريا ان يقبل الدعوة من كاهن او مبشر ، اما وهى فرض يفرض من أعلى ، من مصدر السلطان ، فهو يستنكف ان يترك ما وجد عليه الآباء والاجداد نزولا على أمر السلطان ، لما فى ذلك من شبهة الخنوع او الزلفى ...

— وهذا لعمرى اشبه الناس بالقاضى الذى يظلم ليشتهر بين الناس بالعدل !

— اجل ! ثم لا تنسى موجة الانحلال والتبذل التى سرت فى عهد سلفنا ووالدنا ... فكيف يتخلى الناس عن الاسفاف والتحلل من كل قيد ، لينزلوا على قيد الفضيلة وناموس الروح ؟

— وهل خلا مجتمع يوما من فسق مستور او سافر ؟

— كلا ! ولكن شيوع الاستنكار العرفى للفسق بجانب انتشار الفسق دليل على وجود « شخصية معنوية » للمجتمع وحس خلقى دال على حياته وحيويته .. اما اذا انعدم ذلك العرف ، كان ذلك آية على زوال شخصية المجتمع المعنوية ، اى وحدته التى تبقى عليه تماسكه رغم شذوذ افراده وتفرقهم اشتاتا ... وتلك هى نهاية الجماعة التى لاتنفع فيها رقية راق ولا طب آس

فسألت الملكة متلهفة :

— وهل وصل الامر الى هذا الحد ؟..

— نحمد الله ان لا . فقد بقى الريف المصرى بمنجاة من هذا الانحلال ، وبقيت الاسر المتوسطة فيه سليمة من الاضمحلال ، وتلك اصبع العناية التى حمت مصر من عواقب هذا الانتكاس الخطير ...



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا هو الإنسان

وما فرعون الا بشر ...

وتناولت الملكة شيئا من زهر البستان جعلت تقلبه بين يديها وانفها لحظة ، ثم التفتت الى لتقول :

ـ الحق والجمال فى ما هيتهما القصوى ينبعان من مصدر واحد : هو الوجدان . وقد أوتى اخناتون عبقرية الحق والجمال من ارقى طراز ، فلم يكن شيء فى الدنيا أقدس عنده من الحق المطلق ، ومن عبادة الجمال وتحريه فى أسمى صوره ، وهى حب الحق ، والعطف والرحمة ... ولأنه يدين بالحق المطلق ، بشر بالله الحق ، والحق لايتعدد ، ولايتجسد ، ولا يتغير ولا يتبدد . ولأن الله خير كامل ، ومحبة لانهاية لها ، كان اخناتون مثل الانسان المحب ، المؤمن بالله المحب

فقلت للملكة :

ـ ونعم الحلال هى !.. ولا غرو ان تنوهى بها ، فان التاريخ لم يحفظ حب زوج لزوجته كما حفظ حب اخناتون لنفرتيتى .. اليس حبه لك كان قسمه اذا اقسم اليمين المغلظة ؟

فابتسمت الملكة لتلك الذكرى البعيدة وقالت :

ـ وما ذاك ؟ انه كان لايذهب الى حفل حافل فى المعبد او فى الساحة ، او فى القصر ، الا وانا الى جواره ، وبناتنا الصغيرات من حولنا ، أو بين رجلينا فى المركبة تشق بنا شوارع المدينة !

وسكتت الملكة ، ثم ابتسمت كأنها ذكرت شيئا جميلا آخر :

ــ انه كان يقبلنى ويبادلنى القبلات وهو يقود العربة فى الطريق العام ، والناس على جانبى الطريق ينظرون ! فما اشبه هذا بولع شباب زمانكم بقيـــادة السيارات ومعهم صواحبهم ...

فصحت :

ــ مولاتى ! ياله من تشبيه ! ..

ــ مع الفارق طبعا !

ــ انه فارق النقيض من النقيض ! فليس تشابه الفعل بالفعل شيئا .. انما العبرة بالبواعث النفسية . فهل كانت بواعث اخناتون فى مثل هذا الموقف هى الاستهتار والمجون والتمرد على العرف والقانون ؟.. وهل كان يفعل ذلك باعراض الناس ساطيا أو مختلسا ؟

ــ حاشا له ثم حاشا ... وانما قصد من ذلك الى هدف بعيد

ــ وانى لمشوقة لمعرفة ذلك الهدف البعيد ...

ــ انه محو ضلالة العقيدة فى الوهة فرعون . فهو يريد ان يشهد الناس كافة ان فرعون ان هو الا بشر مثلهم رفعه الله مكانا عليا .. وانه يشعر كما يشعرون ، ويصبو كما يصبون ... ثم قصد ايضا الى توكيد معنى آخر لايقل عن ذلك المعنى الدينى الذى يمس التوحيد والتنزيه لذات الله ..

ــ وهو ؟

ــ وهو ان الاسرة شىء مقدس ، وان الزوجة شىء طاهر ، وان لا اثم فى حب صحيح غير قائم على محض شهوة الجسد . وان الرجل الفاضل الكامل حقا هو الذى يعبد الله بحب زوجته واولاده ... ولاسيما انه لم يكن لنا بنون ، وانما هن بنات ، والناس قد درجوا على ان « ليس الذكر كالانثى » فاراد ان يدخل فى انفسهم ان الزوجة الفاضلة والبنات نعمة

كبرى لاينبغى أن يغض من قيمتها الرجل الكريم المؤمن بالله الحق المحب واهب الحياة ...

معادن الرجال

فقلت :

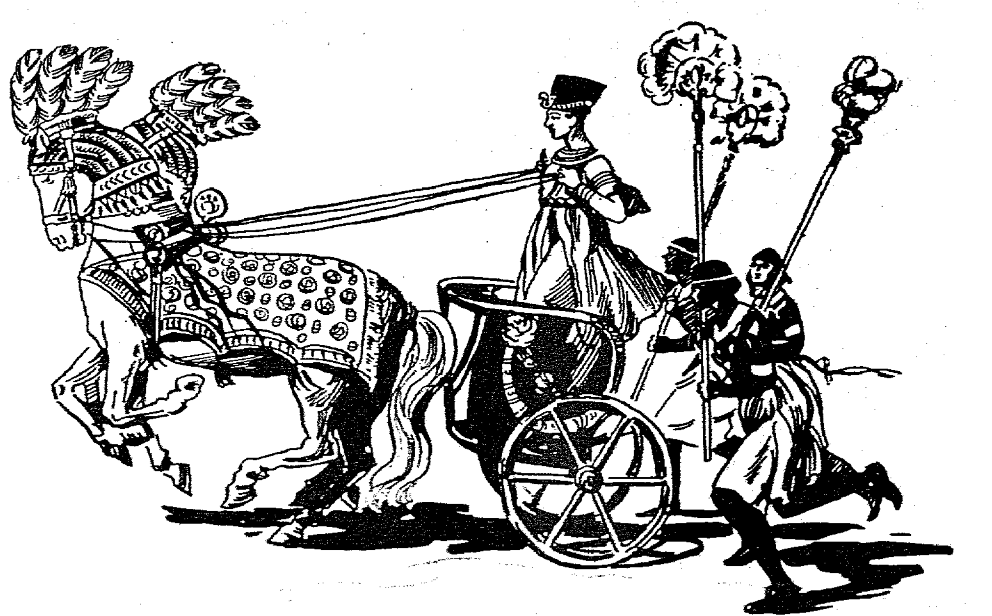
— هو المثل والقدوة اذن .. وهو التضحية بالذات فى سبيل الحق .. فهو يأبى الا أن يمعن فى تحطيم ألوهية فرعون متطرفا فى ذلك الى حد تعريض هيبته للخطر

— أجل هى القدوة .. وتعليم الناس وتصحيح مقاييسهم للرجال والرجولة أيضا

— وكيف ؟

— ان الناس كانوا يحسبون الرجولة أن يغلظ قلب الرجل منهم فلا يرق لحرمه ، ولا يهش لفلذة كبده ، ولا يتبسط مع ذوى قرابته وخاصته ، ولايبكى ولو نزلت به الرزايا الجسام ... فكأنما الرجولة « تعطيل » الحياة فى الرجل ، فلا يعرف السرور ولا يعرف الحزن ولا يعرف الحنان .. فابى الا أن يصحح ذلك الفهم المعوج ، لأنه كان رجلا عميق الشعور ، نصيبه من الحياة واحساساتها نصيب ضخم ... فاذا كان الناس على دين ملوكهم ، فقد حق له أن يبدى للناس ما ألفوا أن يصان عن العيون ، تعزيزا لسلطان الحق الى جانب تعزيز مكانة الشعور فى حياة الانسان . فهو يلاطفنى فى المآدب والمحافل ، ويداعب بنياته ، ويدعو رجال دولته الى مثل ذلك . فاقتدى به منهم عدد ضخم ، حفظت لكم الايام صورهم مع آلهم وزوجاتهم وبنيهم فى ألفة محببة . وان مايسعدنى فى غربتى بمتحف برلين ، ان بذلك المتحف تمثال صغير لاخناتون يلثم فم ابنتنا الصغيرة فى حنان لاحد له ... وهو الحدث الذى لم يسبق اليه فى تاريخ الفراعين

— وانه لحدث عظيم ... فقد نفخ الحياة فى قوم كان مثلهم الاعلى ان يكونوا أصناما بغير حياة !



نفرتيتي فى عربتها الملكية

ــ اى والله يابنية ! وان أنس فلا انس منظره يوم ماتت بنت من بناتنا السبع ، فقد انهمر دمعه مدرارا ، ووقف معى الى جوار نعشها يندبها ويبكيها غير مقتصد ولامحتجز! وما كان سواد الناس يبكون البنين فضلا عن البنات . وناهيك اذن بفرعون سيد الارضين ...

ــ بل هكذا يكون السيد العظيم حقا ، ولايكون الا كذلك ! وما اعرف انسانا عظيما خجل من الحزن قط ...

ــ صدقت يابنية .. فهذا الرسول الكريم يبكى يوم وفاة ابنه ابراهيم ، ويسوى له لحده بيده ، ويقول للجبل : « لو أن بك ما بنا لهدك » ...

ــ اجل يامولاتى .. وهذا رجل فيلسوف مثل ديكرت يبكى ابنته « فرنسين » التى انجبها من صديقة له بكاء شديدا .. لعمرى يامولاتى لقد حسب الناس انه هبط بمكانة فرعون ، من حيث ارتفع بها اخناتون الى السماك الاعلى .. ووضع للناس حدا فاصلا بين معادن الرجال وأشباه الرجال

الحق والفن

فقالت الملكة :

ــ وابى فوق هذا الا أن يعمم دين الحق والاحساس بالحياة واطراح النفاق والتصنع ، فيشمل الفن كما شمل الحياة .. فانطلق الفن فى عصره من اسار التقليد والجمود القديم ، ليصير، كما ينبغى له أن يكون، معبرا عن الاحساس بالحياة ، وعن الاشكال والالوان على حقيقتها .. فألح فى تصويره وتصوير أسرته كما يبدون ، بعيوبهم الجسمية ظاهرة ، امعانا فى تحطيم الوهية فرعون وآله ، ومبالغة فى تقديس الحق فى كل شىء ، واعلانه بغير مواربة ولا مداراة

ــ وانى لأحسب يامولاتى ان النقلة من طيبة الى

« اخيتاتون » ، وانشاء تلك العاصمة الجديدة بعد ان لم تكن ، قد كفلت للفن الجديد الصادق الحر أن يجد الميدان الفسيح للابداع فى غير تعثر ولا تردد ...

ـ طبعا ! لقد انشئت العاصمة انشاء .. فخططت وبنيت معابدها وقصورها على اساس الفن الجديد ، الذى يجمع بين البساطة والجمال فى آن واحد

ـ وزينة القصور ؟

ـ تلك هى الطفرة الكبرى ! فقد اختفت مناظر الجبروت والخضوع ، وبرزت مكانها مناظر الطير والحيوان والسمك والزهر ، ونور الشمس الباهر يغمرها ، وهى تمرح فيه سعيدة ناعمة ... ثم صور فرعون وآله فى مجالسهم ، وفرعون يداعب ، أو يسمر ، أو يمد يده بكأس نحوى فاملؤها له من قدر خمر فى يدى ، وبنت من بناتنا تقدم له شيئا فى طبق على راحتها ، وأصغر البنات تحمل اليه أعوادا من الزهر المونق ...

ـ ما اجمل وما ابدع ...

ـ واجمل من هذا ان جميع عيوب فرعون واهله تظهر فى ذلك الرسم بكل وضوح ... فالحق والجمال شىء واحد لا يتجزأ ...

ـ وهل رضى عن هذا الراى اصحاب الفن ؟

ـ ويحك ! وهل يرفض الفنان الحق الحرية فى الاداء والتعبير ؟ ان الفنانين كانوا قبل ذلك اليوم مغلوبين على امرهم ، مرغمين على صب اعمالهم فى قوالب التقليد والمداراة والتكلف ، ارضاء لضيق افق السادة ، بل الآلهة من فراعين مصر ...

وهززت راسى يمنة ويسرة بحركة خفيفة ، ولكنها لم تفت عين الملكة .. فسالتنى ماذا يدور براسى ، فقلت :

ـــ لا شيء ذو بال يا مولاتى .. انما هو خاطر هين ...

ـــ وما هو ؟

ـــ ذلك التوحيد، وذلك الولوع بالحق .. فلاشيء الا«الحق» يشغل هذا الانسان العظيم ، لا عن ذكاء وكفى ، فما يقوم الذكاء بكل هذا القسط من الادراك الذوقى الرفيع ، بل عن المعية الروح ونفاذ البصيرة ، فانه وعى الكون الى الاعماق، فتجاوبت معه نفسه ايمانا بعظمة الموجود الكامل ، وانفعالا بدفعات الحياة من حزن ونشوة وفرح ومحبة .. فكيف اجتمعت هذه الرقة التى لا مثيل لها ، وتلك الصرامة والصلابة التى سولت له ان يضرب الضربة الكبرى ؟ فان تحدى الكهان من رهط آمون هول ليس كمثله هول ...

ـــ ذلك تمام الايمان بالواحد الحق ، فان شجاعة الايمان هى تمام الايمان ، وكان ايمانه ـــ علم الله ـــ فى اوج التمام ، فأحب ورق عن قوة نفس ورهافة حس ، لاعن ضعف ورخاوة . وقاوم وصمد وتحدى عن قوة نفس ايضا ورهافة حس ، لا عن قسوة وشرة : لأن الحق هو دافعه فى الحالين على اختلاف المظهرين

تمام التوحيد

فقلت للملكة :

ـــ الآن فهمت السر الكامن وراء اجتماع الصلابة والرقة والطيبة المتناهية فى شخص اخناتون .. ولكن ثمة شيء يحيرنى ولا اكاد أجسر على استيضاحه .. لولا انه لا حياء فى العلم

ـــ لا حياء .. لا حياء ...

ـــ انها مسألة أولاد فرعون ...

ـــ أى أولاد ؟ انه لم ينجب الا سبع بنات ماتت واحدة منهن وبقيت ست ...

ـ مولاتى ! هذا موضع الحرج ...

ـ وفيم الحرج ؟

ـ قيل انه انجبِ من غيرك من نساء الحريم ولدين على الأقل : سمنخ كارع ، وتوت عنخ آتون ...

ـ وى ! انها لكبيرة من الكبر ...

ـ الم تكن بين يديه وتحت يمينه القيانّ والسرارى ؟

فحملقت الملكة فى وجهى مستغربة وقالت :

ـ ان من يقول هذا أو يصدقه فقد جهل « روح » اخناتون ، واخناتون روح ، وروح عظيم . انه رجل فطر من حس مرهف ونفس شفافة رفافة كالزهر ، سمت فطرته الى الحق الاسمى ، وصفت سريرته فنفذت الى كنه الوجود المطلق .. فهل يكون هذا الرجل أخا نزوة ، وأسير شهوة ؟ انه صاحب التوحيد ، فى الفن والحياة ... وليس مثله من ينوء تحت غرام الشهوة . لقد كان اخناتون موحدا فى كل شىء ، ولاسيما فى هوى القلب ، لأن الايمان والحب عنده شىء واحد ، والجسد عنده وعاء الروح ، وما كان ارقه من وعاء ثقلت عليه الادواء ، بما ورث وما كلف نفسه من عناء على السواء ... فلا تحسبن اخناتون كان يتشهى امرأة سواى ، أو يتدلى الى خيانة حبه لى ، وانه لشديد

ـ ولكن الناس لم يدرجوا على اعتبار التعدد أو التسرى خيانة !

ـ وهم أيضا لم يدرجوا على اعتبار الوثنية كفرا والحادا ! ولكنها كانت كذلك عند اخناتون ... فليس مثله من يستعير مقاييسه الخلقية والوجدانية من أحد .. والحب عنده لايمكن لهذا أن يتعدد ، ولا أن يستبدل الذى هو ادنى بالذى هو خير ، فيعرف امرأة لأنها أنثى ، بعد أن عرفنى

كما يعرف الانسان الانسان ، بالروح والوجدان لابمحض نزوة جسد شهوان ...

ــ ما أشقانى بهذا الذى نقلت اليك ...

ــ هونى عليك ! ودعينى أهمس فى اذنك ان اخناتون الذى سجل حياته سافرة كان حريا أن يسجل هذا التسرى المثمر ويعلنه على رؤوس الاشهاد ... لولا انه لم يكن قط

والعرش ؟

فقلت متحيرة :

ــ ووراثة العرش ؟ الم تخطر له ببال ، والم ترد لك على خاطر فتدفعيه الى التماس الولد التماسا ؟

ــ كلا ! لم يحزنا ذلك الامر ، لأن اخناتون كان قد حسمه واستراح الى قراره فيه .. فقد كان هناك سمنخ كارع ، الذى كان عنده عوضا عن الولد ، وبموضع الولد ...

ــ ابن من هو اذن ؟ لقد قال آخرون انه أخوه الصغير، وانه لهذا كان يدلله ويقبله ويضمه الى صدره ... حتى ارجف المرجفون ...

ــ ألا ساء ما يتوهمون ! اتذكرين اخا اخناتون الاكبر ، واخى انا ايضا ، الذى سمى « تحتمس » وجعله والده كبيرا للكهان فى منف ، ووكل اليه شؤون الثقافة والمعابد فى أقطار مصر ، ثم مات فى ريعانه ؟

ــ اجل اذكره يامولاتى ، واذكر ان اخناتون خلفه على ولاية العهد

ــ هذا هو والد سمنخ كارع ، الذى أحبه أخناتون وتبناه ورباه مع بناته وكان برا به ليهون عليه مرارة اليتم الباكر .. ثم زوجه من كبرى بناته ليرث من بعده العرش ...

ــ وتوت عنخ آمون يا مولاتى ...

ـ هذا فتى من النبلاء أنسباء الاسرة ، اصطفاه وزوجه من ابنته الثانية ... وذلك تأويل ما لم تعلمى ...

ـ ألا شد ما يظلم الناس كبار الرجال أحياء وأمواتا ...

ـ بل يظلم الكبار انفسهم ، أو يظلمهم قدرهم الذى خلقهم عمالقة فى بلاد الاقزام !





محنة الأمين

القمة الباردة

واستأنفت الملكة حديثها عن زوجها الملك ، فقالت :

ــ حمل اخناتون عبء رسالته سنة بعد سنة ، محدثا بذلك أعجب ثورة حدثت أو تحدث قط فى تاريخ هذا الكوكب : فقد الف الناس أن يثور المحكومون على الحاكمين طلبا لحق مهضوم أو ردا لعدوان غشوم . ولكن ثورة هذا الثائر الفذ كانت ثورة حاكم لا ثورة محكوم ، ولم تكن تهدف الى تعزيز السلطان ، بل الى تغيير اساس السلطة ونظام الحكم لمصلحة المحكومين أنفسهم . كانت ثورة مثالية لتحقيق الحرية ، بل لاقامة النظم الاشتراكية . والمفروض فى الثورات أن يتحمل الثائرون أعباءها لمصلحتهم ومصلحة طبقتهم ، فاذا بثورة هذا الثائر الفريد تنصب على حقوقه وحقوق فئته من الفراعين . فقد ولد الها فأبى الا أن يصيح فى آذان الناس : انى بشر فلا تعبدونى ، واعبدوا ربى وربكم . وكان الناس يرون أن أهم صفات الرجل العظيم ــ وفرعون رأس العظماء أطلاقا ــ شدة الباس والجبروت والقهر ، فاذا هو يعلن على الملأ أن خاصة العظمة هي الحب والرحمة لا الجبروت والبأس . وأن صفة العزيز أنه الحكيم الرحيم ، لا القاهر الغشوم .. فكان أول من نادى بتعاليم المسيحية قبل المسيح بثلاثة عشر قرنا ، وقبل الموسوية بزمان طويل . فكان الرائد الذى لم يسبق ، وظل قرونا طوالا لا يدرك ولا يلحق .. بل أن حلمه الرائع ظل الى اليوم دون أن يتحقق !

ــ انها عبقرية الذوق المرهف والالهام الرفيع ...

ــ هى العبقرية أجل .. وما من عبقرية الا وعليها ضريبة

تصاعدية ، تزداد بمقدار عظمتها وتفردها . واقسى هـــذه الضرائب على الاطلاق هى « القمة الباردة »

ــ وما هى القمة الباردة ؟

ــ هى الوحشة التامة الناجمة عن التفرد والانقطاع فى علو شاهق من آفاق الروح والفكر لا يشرك المرء فيها أحدا من الناس .. وكلما ارتفعت هذه القمة عن زمانها وبنى جيلها كانت العزلة اكمل ، والوحشة أتم . فتنقطع بين العبقرى وبين أبناء جيله الاسباب ، فهو فيهم وليس منهم ، وبينهم وليس مثلهم ، ولا هم مثله فى أخص خصائصه التى من أجلها يعيش . وهى مبادئه ونظرته الى الكون والحياة

خطأ الأريب

فقلت للملكة :

ــ ان العبقرى لا يخلو من التبعة كل الخلو فى هذا الشقاء الذى يعانيه بانقطاع الناس عنه وانقطاعه عنهم فى « القمـــة الباردة » ...

فسألتنى الملكة فى دهشة شديدة :

ــ وكيف ؟

ــ الم يتبين منذ البداية انه بعد عنهم وكلفهم فى مرتقاه مالا طاقة لهم به ؟ فكيف اذن يلومهم بعد ذلك كانه يجهل حقيقة موقفه منهم ؟

ــ وما الذى انباك انه يتبين منذ البداية صعوبة المرتقى على أهل زمانه الذين يعنى نفسه بتبشيرهم وتبصيرهم ؟

ــ وكيف لا يتبين ذلك وهو الفطن الاريب ؟

ــ لانه فطن اريب !. الا تذكرين قول صاحبك أبى العلاء :

واعجب منى كيف اخطىء دائمـــا
على اننى من اعرف الناس بالناس ؟!

كذلك كل عبقرى أريب .. فانه يحسب الناس جميعا خلقوا على غراره ، أو هم على الاقل لا يختلفون عنه اختلاف الطبع الاصيل ، وانما هى اختلافات فى العرض لافى الجوهر ..

ومن هنا يأتى خطأ العبقرى فى فهم بنى جبله .. فهو يحسب طريقة احساسه وتفكيره هى الطريقة البديهية التى لا تحتمل الخلاف ، وانه يكفى التنبيه اليها ليثوب اليها كل من شذ عنها .. وتعمل الحماسة للفكرة والعقيدة على خداع صاحبها ، فلا يتبين مدى البون الشاسع بينه وبين سائر الخلق ، حتى ينقضى زمن طويل ، فاذا هو مخدوع طالت عليه الخديعة ، واذا من يحسبهم حوله أو قريبين منه بعيدون جدا ، واذا به وحيد فوق « القمة الباردة » بغير انيس ولا شريك ... فيحس بالمرارة وخيبة الرجاء ، وقد يستولى عليه القنوط من اداء رسالته

ـ واها له !.. ولكن لماذا يهتم العبقرى كل هذا الاهتمام بالناس ؟..

ـ هذا يا بنية داء العبقرية ، على اختلاف فى الدرجة والشدة : فعباقرة الفنون والفلسفة يتركون للاجيال القادمة أعمالهم ويضعون فيها أملهم ، فلا يسرع اليهم القنوط ، ولا تبلغ منهم المرارة كل هذا المبلغ ، أما عباقرة العقائد ، فلا سبيل لهم الى التغاضى عن انفضاض الناس عنهم .. لان الناس هم « موضوع » رسالتهم و « الوسط » الضرورى الذى لا يمكن أن تتحقق بدونه تلك الرسالة .. وذلك ما وصل اليه اخناتون بعد سنين من التبشير والكفاح الذى لا ينقطع ، فكان ذلك أقسى عليه من المرض،ومن آلام الجهاد العنيف الذى يثقل على من خلق مثله كارها للعنف بفطرته

خيوط المؤامرة

فسألت الملكة فى شىء من الدهشة :

ـ ولكن لماذا طالت هذه المدة ، فلم يفطن اخناتون للحقيقة قبل ذلك الوقت المتاخر ؟

ـ لانه كان يا بنية ضحية مؤامرة محبوكة الاطراف ...

ـ مؤامرة ؟ ومن دبر هذه المؤامرة ؟

ـ لا أحد . انه القدر، وليس مثل القدر اذا احكم ما دبر . فقد ائتلفت عناصر مختلفة واجتمعت على خداع اخناتون . فهو رسول دين ، ولكنه ملك الارضين ... وهو ملك نافذ السلطان ، ولكن رجاله من طراز خلقه خلقا ولم يكونوا من قبل أهل حكم وسياسة ... ففيهم الغر ، وفيهم الوصولى ، وفيهم من ياكل على المائدتين ، ويضلع مع كهنة آمون ، وفيهم من يتهم اخناتون بالغفلة ــ لانه لا يفهمه ــ ولكنه يستغل هذه الغفلة للثراء والتقدم فى المناصب . فأولئك كلهم خدعوه .. وخدعه كذلك معظم المخلصين من انصاره ، لانهم كانوا يحسبون لحماستهم أن دينهم انتصر وانتشر حقا ، او لانهم كانوا يحبونه فلا يريدون ادخال الحزن على قلبه الكبير بتثبيط عزمه واثقال همه ... فظل يجهل حقيقة موقف الناس منه ، وحقيقة الاضطرابات التى نشبت فى الامبراطورية ، حتى ساء الموقف فيها ، فلما علم بالحقيقة ظل محيرا لا يدرى ما يصنع : فانه قادر أن يبطش ، ولكن « أزمة ضمير » فريدة فى نوعها استولت عليه : أينكر مبادئه ومثله العليا التى ينادى بها فيقهر ويرغم على الخضوع من ثار وخان ، او يبقى على مبادئه ومثله ويفرغ لتوطيد الدين الحق فى مصر اولا وقبل كل شىء ... حتى سبق السيف العزل ، وسقطت « طونيب » ، وزالت الراية المصرية عن بلاد الشام ، واوغل الحثيون فى الارض ايغالا ينذر بالاخطار الجسام

كشف النقاب

فقلت للملكة :

ــ كل هذا مفهوم ، ولكنه لا يفسر كيف صحا اخناتون فى وقت معلوم على صوت الحقيقة الصارخة الذى ظل لا يسمعه، وهو هو المبشر بالحق يتحراه ولا يريد عنه بديلا ؟..

ــ صحا على صوت مؤامرة أخرى ...

ــ من صنع القدر أيضا ؟!

ــ من صنع البشر لا من صنع القدر .. فقد دبرها رجال آمون ، وسعوا الى تحقيقها مستعينين برجال من حرسه الخاص ...

ــ انه سحر المال ، واغراء الذهب ولا شك ...

ــ لا اظن ! فان المال لا يغرى جنديا على تعريض حياته للخطر المحقق بقتل ملك ، وأى ملك ؟ فرعون مصر !

ــ ماذا اذن أغراهم ان يركبوا ذلك المركب الصعب ؟

ــ ما هو اغلى من الحياة عند مثل هؤلاء ... فهم من رجال الجنوب ، من أهل القبائل التى لا تزال على الفطرة . وهم لا يفهمون ولا « يهضمون » فلسفة اخناتون الروحية ، ولا شك انهم كانوا ينظرون الى ظواهر اعمال اخناتون فى حياته الخاصة والعامة ، من التبسط والتحرر ، نظرتهم الى المجون والخلاعة التى لا تليق بالملك ، وتخدش العرف والحياء .. ولا سيما ان دعايات كهان آمون ، ورجال المال ، كانت كلها مسخرة لتشويه سمعة الملك ...

ــ وكيف يتركهم الشرطة يذيعون هذا ؟..

ــ لان سلاح المقاومة دائما فى هذه الحالة هو الجماعات السرية . ولا يعجز قوم مثل كهان آمون لهم منظمات وحول وطول واشياع واتباع ان يبثوا الدعاوى السرية فى كل مكان

.. ويضاف الى ذلك أنهم أصحاب السلطان الروحي الموروث المألوف ، والناس عبيد ما ألفوا ...

ـ وكيف اذن نجا فرعون من المؤامرة ؟

ـ لان قوما آخرين ممن لمست قلوبهم طيبة فرعون وشوا بالمتآمرين فضبطوا متلبسين ، وحوكموا ، وعوقبوا أشد عقاب .. وحمد الناس جميعا يد العناية التي حمت فرعون ، الا فرعون نفسه ، فان وقع هذه المؤامرة على نفسه كان حاسما لانها دلته على حقيقة المخبوء وراءها . فلم ينطل عليه قول القائلين ان سلطان المال هو الدافع الى القيام بها . ولم يفارق ذهنه منذ ذلك اليوم معنى هذه المؤامرة ، وبدأ ينظر الى من حوله بعين جديدة .. فاكتشف خبيئة نفس الكثيرين منهم ، فأقصى من أقصى ممن كان قد رفعهم . ولكنه كف بعد ذلك عن الاقصاء والعقاب ، عند ما رأى الداء أشد انتشارا مما كان يقدر ، فبلغ منه التقزز حد عدم الاكتراث .. وعدم الاكتراث صنو القنوط

ضعف الأمين ..

وبدا الاسف واضحا على وجه الملكة ، فقلت لها :

ـ ان القنوط أشأم ما يصاب به انسان ، ولا سيما أصحاب الرسالات منهم .. ولكن أين قوة الايمان ؟..

ـ ليس قنوط هذا الطراز من البشر عن وهن في ايمانهم ، وان بدا كذلك . وانما هو على العكس مما يبدو لاول وهلة ، نتيجة لازمة لقوة الايمان ، وقصور وسائل الامكان . أليس المسيح بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا قد عاني من اليهود ماعاني ، حتى صاح يناجي ربه : «الهي ! الهي ! لماذا تركتني ؟ » ... فهو يستنجز ربه ما وعده به من نصر . كذلك كان قنوط اخناتون ... انها موجة التشاؤم من الناس ، لا من الحق الذي يدعو اليه ... وقد كان تشاؤمه شديدا جدا

ـ وأنت يا مولاتي ؟ أنت ؟ كيف ييئس وانت الى جواره ؟ ألم تكوني مؤمنة به كل الايمان ؟

ـ ما في ذلك ريب ! وكان يعلم هـــذا . ولكنه لم يبعث رسولا الى نفسه ، فانما يبعث الرسل للناس . وانا عنـــد اخناتون صنو نفسه بشريعة ذلك الحب الفريد الذى ربط بين قلبينا ، بل وحد بين روحينا ... فكنت أنا بايماني به غير قادرة على عزائه ، في حين كان ينبغى أن أكون موئل عزائه ...

ـ يا للرجل المسكين !..

ـ تلك حقا كانت كلمة كل من أحبه فى ذلك الظرف الدقيق ، حتى أن أمنـــا الملـــكة تى أسرعت اليـــــه من قصرها شرقى طيبة لكى تطمئن عليه ، وتسرى عنه بعض التسرية مما يجد ... ففرح بزيارتها التى لم تعش بعـــدها طويلا ، وتركته يجتر آلامه ، ويشكو الى الله « ضعف الامين وقوة الخائن » ...

وسكتت الملكة لحظة ، فاحترمت صمتها حتى عادت الى الحديث :

ـ لقد رأى نفسه فى مفرق الطرق : وما من طريق منهـــا يؤدى الى السعادة وراحة النفس ، وانما هما طريقـــان ، وحديث نفسه فى أمرهما كقول أبى على بن الرومى :

أمامك فانظـــر أى نهجيـــك تنهج
طريقان شتى : مســـــتقيم وأعوج !

واصعب ما فى الامر أن الطريق المستقيم ليس أحلى من الأعوج مذاقا

ـ وما الاعوج وما المستقيم ؟

ـ أما الاعوج فهو التخلي عن الحياة ، وقد تعذرت عليه حياته ، وعاف أن يعيش فى دنيا لا تفهمــــه ولا تستجيب

لدعوته الى الخير .. وأما المستقيم فهو الانطواء على نفسه وترك الدعوة

— وكيف ذلك ؟..

— بترك العرش « لسمنخ كارع » ولى عهده وزوج ابنتنا الكبرى ، وهو ابن أخيه تحتمس الذى توفى فى منف .. ثم يعيش معى ومع البنات والانصار المختارين فى ظلال الدين الجديد ، فى شبه دير من الاديرة التى عرفت فى مصر على عهد المسيحية ...

وسكتت الملكة فجأة ، وقد لمعت عيناها .. ثم لم تلبث أن قالت :

— من عجب انه كتب على مصر أن تكون أول بلد يعرف الاديرة والنساك فى الصوامع ... لماذا ؟ لانهــا عرفت استقلال الرأى الذى لا محيص لصاحبه أن يعتزل الناس ، لينجو بنفسه وعقيدته من القنوط ، أو من الموت ، أو ممــا هو شر منهما وهو المسخ أو الابتذال ؟! ..


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البداية والنهاية

٧ ــ نفرتيتي

روح ولا جسم ...

وفجاة رايت نفسى على مشارف الصحراء ، فسالت الملكة فى دهشة :

ــ وى ! الى اين ؟ واين نحن الآن ؟

ــ اننا يا بنية حيث وقف التاريخ من خبر اخناتون .. فمبلغ ما وعى الدهر من امره بعد ما تقدم ، أن سمنخ كارع خلف اخناتون على عرش مصر .. اما اين ذهب اخناتون ؟ وهل مات أو قتل ؟ ولئن مات او قتل فأين جثته فيما حفظ الدهر من أجساد الاجداد؟ . كل هذه اسئلة لا يجد التاريخ عليها جوابا . فقصارى ما يعرف التاريخ من هذا الامر أن اخناتون اطلع فى ظلمات الماضى نورا ثاقبا ، ولكنه كان نورا بلا نار ، وحرارة بلا أوار . وان ذلك الروح العظيم رحــل عن الدنيا فلم يخلف وراءه جسما محفوظا ، كأنه كان روحا بلا جسم

فقلت فى اسى وخشوع :

ــ مولاتى . تقدست آلاء الله .. الا ما احسن مقالة ابن الفارض فيه :

صفـــاء ولا ماء ، ولطــف ولا هوا
ونور ولا نار ، وروح ولا جســم

وانه لكلام بديع وغزل رفيع ، وانه لمن الجيد القليل فى شعر هذا الشاعر المتصوف

ــ هو شعر جميل حقا ، ولو كانت العربية لسان اخناتون لقال مثل ذلك أو ما فى طبقته

ــ بل ان اخناتون يا مولاتى قال فى الذات العلية شعرا من أعلى طبقة فى الشعر العالمى فى جميع اللغات ، وفى جميــع العصور . وليس فيما حفظ منه سطر واحد من ســقط

القول ... ولكنى يا مولاتى أرى فى النفس حاجة لم تنقض .. االصرح بها او اكتمها ؟ .

ـ سيان ! فانى عرفتها ، ولاقضينها .. وانما أردت أن اوفر عليك تعبا وعناء قيل وقال فى غير ذى بال ... انك تريدين معرفة اليقين عن نهاية اخناتون ...

ـ ذلك والله ما عنيت : فانى اريد أن اعرف كيف ودع الحياة ذلك الروح العظيم ، أعظم روح خطرت تحت سماء مصر منذ الازل ...

ـ ساروى هذا الشوق ، ولكنى أخشى ان رويته للناس أن يقال اضغاث احلام ونسيج أوهام

ـ لا عليك مولاتى .. فما على الحالم بأس اذا استعصى الواقع الملموس على طالب المعرفة

من هنا نبدأ

فقالت الملكة :

ـ اذن من هنا نبدأ ..

ـ نبدأ ماذا ؟

ـ نبدأ طريق النهاية ، التى خالها اخناتون طريق البداية. ففى هذا الموضع على باب الصحراء وقف ذلك الانسان اخناتون محيرا يسال الفجر ويستشف من أنواره نورا لضميره الحائر : ايظل ملكا ، أم يخلص للنبوة ؟ وهل هو نبى حقا ورسول معزز ، أو هو « صوت صارخ فى الآفاق ، أن افتحوا قلوبكم لنور الله الذى يزمع أن يشرق ... »

ـ لقد بدا يشك اذن ...

ـ أجل ، ولكن فىنفسه لا فى رسالته ، فى عمله لا فى ايمانه، فقد تبين له ان الايمان لا يلقى الى الناس من أعلى ، من حكامهم،بل يجب ان يخرج من اعماقهم فيرتفع رويدا رويدا،

حتى يغمر القمة كما غمر القاع . ومن اجل هذا ايقن ان الشعب هو البداية ، وان التبشير بالحق يجب ان يبدأ من هنا ... من لا شيء ، من الداعيـــة المجهول بين النـــاس ، ومن البرية ، ومن الريف ، ومن الصـــحراء ، يزحـــف على المدينـــة وعلى القصر ... ولـكن شيئا واحدا وقف كالغصة المعترضة في الحلق ... ذلك هو انا . هل يتركني وحيدة بلا معين ؟ هل يدعني وبنياتي للمخاطر والاهوال ؟ ايامن علي من اعدائه واعدائي ؟

واضطرب صوت الملكـة ، واختلج بدنها وهي تقول بعـد صمت قليل :

ـ وشهدته انوار الفجر في هذا المكان ، واقفا ينظر الى الافق ، منكس الراس ، محزون الفؤاد، وفي عينيه الصافيتين دموع تنحـــدر على خـــده النـــاحل في صمت ... اجل في صمت ، ولو كان للعواطف والاحاسيس صـــوت لسمع في صدره كهزيم الرعد في ليلة عاصفة ...

وسكتت الملكة برهة اخرى ، حتى هدأ جاشـــها .. ثم قالت بصوت تبدو فيه العزة والزهو :

ـ واخيرا انتصر الواجب ، وكانت للايمان ورسالة الحـــق الكلمة العليا ... وعاد اخناتون الى القصر بعد صلاة الصباح الباكر مطمئن النفس ، فنام الى الضحى ، ثم كتب رسالة الى « حور محب » قائد الجيش في منف ان يكون على اهبـــة السفر الى العاصمة لحماية ولي عهده ...

ـ الم يكن حور محب على دين آمون في دخيلة نفسه ؟

ـ بلى ! ولكنه كان رجلا . وكان اخناتون يقدر ان آمون يجب ان يسترد السلطان ، حتى يتسنى له في حياته الجديدة ان ينقلب عليه ، لان تحدى السلطان احب الى الناس من ممالأته !

« فلما كان المساء . خرج الملك وحده كما كان يخرج احيانا ،

وقبلني وقبل البنيات ، ولكني لم أحسب أنها قبلة الوداع الاخير . . . وابتلعه الظلام في الصحـــراء ، في ثياب كان قد أعدها في المعبد لهذا الغرض، فبدا درويشا من دراويش «أون» دين الشمس القديم الذى كان يعبد فى هليوبوليس »

ــ وترك القصر فارغا ؟

ــ أجل ! تركه فارغا ، بعد أن وضع فى يد « آى » قائد الحرس ووالد مرضعتى رسالة الى « مريرع » كبير كهـــان آتون أن يعلن فى الناس وفاته، وتولية ولى العهد سمنخ كارع، وان جثته حنطت فى مكان حريز حتى لا تتعرض لانتقام كهان آمون وسحرهم ، وكان سحرهم مضرب المثل عند العامة . .

ــ وهل طابت نفسه بتركك ؟

ــ بل طابت نفسه بالفداء وخدمة القضية الكبرى ، قضية الله ، متجردا من كل ما كان له فى الدنيا من سلطان ، ومال ، وولد ، وغرام

ــ ما أهوله من فداء لم تحفظ مثله الايام !. .

ــ هيهات ان يقدم على مثله أحد قط ، ألم يولد ملــكا فآثر الفاقة، وغنيا فآثر الخصاصة، وأبا فآثر العقم ، ومحبوبا فآثر الحرمان ، وعزيزا فآثر الوحدة والمهانة ؟!. وراح يبغى نجوة من كل نعم الدنيا ، فى سبيل نعيم الروح الذى لم يؤمن به سواه ، ولكنه كان عنده أوثق واثبت وجودا من التاج، ومن الجيش ، ومن كنوز الارض، ومن الحبيبة والولد. . . والولد من دواعى الجبن والبخل ، الا عند من عصمهم الله واصطفاهم لدعوة الحق فطهرهم من زغل الدنيا وفتنتها تطهيرا . . .

ــ كذلك اذن مضى اخناتون ؟. .

ــ اجل، مضى ناجيا بدينه من دنياه. . . ومهاجرا من الملك الشاسع والجاه العريض الى كنف الله . . .

ــ سلام على اخناتون . . وفى حفظ الله . . .

غاية المسعى

وضحكت الملكة ضحكة حزينة ، ثم اجابتنى :

ــ راح اخناتون يبشر بالوحدانية متنكرا ، فى اسواق الريف ، وفى جموع الناس عند الغروب امام المعابد. . . يأكل مما يقدم له ولو كان من نفاية الطعام ، ويشرك معه فيه كلبه الذى تبعه فى مهجره مثل ظله . .

وسكتت الملكة ، كأنها تسترجع ما غابه‌ثم هزت راسها فى أسى وقالت :

ــ ما اشبه الليلة بالبارحة ! ان التعصب آفة البشرية التى لا آفة مثلها . فهذا شاب من المتحمسين لآتون ، ولاخناتون، دون أن يراه راى العين قط ، يشعر أن « الدرويش » يردد معانى فرعون الذى « قضى » ، فيضيق بهذا التقليد ــ ولا سيما أن الدرويش كان يتحاشى ذكر اسم آتون واخناتون ، وكان يتكلم فى التوحيد والمحبة عموما ــ وقام براس الفتى المفتون ان « الدرويش » يريد أن يغتصب شرف التبشير بالوحدانية من اخناتون . . فقام اليه وهو نائم فى العراء تحت شجرة فذبحه ذبح الشاة . .

واشرقت الشمس على جثة بلا راس ، لان الفتى اخذ الرأس والقى بها فى النهر . . ولم يبك أعز البشر فى زمانه ، احد الاكلبه الذى جعل يقطع سكون‌الليل بعوائه الحزين . . . وكذلك مضى رجل المحبة ، والسلام ، محروما من المحبة ومن السلام ، بيد واحد يحسب نفسه ويحسبه الناس نصيرا مخلصا لرجل المحبة والسلام . . .

ــ واأسفاه ! ما أشبه الليلة بالبارحة حقا . . .

ــ وكيف لا يا بنية ؟ والانسان هو الانسان ، وانه لجهول، وانه لظلوم . . .

ــ « ان الانسان لفى خسر» . . وصدق الله العظيم . . .

کمینہ ثناء اللہ

فى مهب الريح

وعلى صخرة ناتئة فى سهل الصحراء المترامى جلست الملكة .. وجلست صامتة فى انتظار خروجها من صمتها . فلما طال بها الصمت قلت لها :

ــ وماذا كان من امرك بعدها ؟

ــ وماذا يمكن ان يكون من امر ريشة فى مهب الريح ؟.. لقد كان خبر موت الملك صدمة لى حين زعمه مريرع للناس كأمر فرعون ، فصدقته ... ولكنى رايت حور محب يدخل القصر فجاة ، فأيقنت ان رسالة زوجى وملكى وشقيقى فى خطر ، فكدت اجن . وكانت عقيدته قد جعلت فكرة العالمية والانسانية غالبة على فكرة الوطنية ، اليس الله الواحد اله الناس كافة ؟ فخطر لى أن أدعو ابن امير الحثيين لدخول مصر ، فيتزوجنى اذا شاء أو احدى بناتى ، حتى يصون دين آتون وينشره فى مصر وفى بلاده أيضا ثمنا للعرش .. فيصان الدين ، ويعز جانبه ، ولايعود الامر الى كهنة آمون، وانا اعلم انهم لن يرحموا حزبنا،ولن يرحموا اسرتنا من الانتقام الرهيب ، او كذلك خيل الى الوهم ...

ــ وهل فعلت ذلك حقا يا مولاتى ؟

ــ اجل فعلته .. ولكن فراسة اخناتون كانت اصدق من فراستى ، فقد كان خبيرا بالرجال ، وكانت ثقته بحور محب ثقة صائبة .. او قولى ان مصر كنانة الله فى أرضه ، من ارادها بسوء قصم الله ظهره ...

ـ وهل قصم الله ظهر من أرادها بسوء ؟

ـ اجل ! فقد كان حور محب يراقب كل شيء فى الخفاء ، فوقع فى يده خطابى ، فلم يعوقه ، بل تربص على الحدود حتى اذا أراد ابن أمير الحثيين أن يعبرها الى مصر ، ذبحه وحاشيته ذبح الشاة ، ونجا لمصر مجدها ... واستقر الملك لسمنخ كارع ما عاش من أيام الدنيا ...

الوحدة القومية

ـ ولكن كيف علمت يا مولاتى حقيقة ما حدث لزوجك اخناتون ؟

ـ لم أعرف الحقيقة فى حياتى ، وانما عرفتها بعد أن فارقت الدنيا

ـ ورسالة اخناتون .. من الذى حملها الى الناس ؟

ـ لم يحملها أحد .. حتى بعث لها الله من رسله من بعث ... فقد عادت عبادة آمون الى الحياة ، مكتسحة فى طريقها كل ما أنشأه اخناتون ، فان حور محب رأى ان نجاة مصر من الخطر الخارجى لاتمكن الا بالقضاء على الانقسامات الداخلية ، فنصح لسمنخ كارع أن يعيد عبادة آمون ، ليوطد سلطانه على العرش ... فصدع بالامر ، وتحققت الوحدة القومية ، وتسنى لمصر أن تسترد مع الايام مجدها وهيبتها فى الشرق

فسألت الملكة فى تلعثم :

ـ وأنت يا مولاتى ؟ كيف تركت الدنيا ؟ وأين جسمك من هذه الارض ؟

فوجمت نفرتيتى لحظة ثم قالت :

ـ وماذا تنتظرين ان أفعل ، وقد فقدت كل شيء ؟. فقدت الرجل الذى أحببته وأحبنى ورفعنى فوق كل مقام ،

وفقدت عطف ابنتى وزوجها الملك الجديد لانني اردت ان اوطىء عرش مصر رجلا غريبا . وفقدت عطف قومى جميعا لهذا السبب :

« والناس من يلق خيرا قائلون له
ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبل !

« فكان لأمي الهبل يابنية،وصرت منبوذة بعد عزة ، وبدات اشعر بمدى الفراغ الذى خلفه فى حياتى زوجى وشقيقى وحبيبى اخناتون »

وسكتت الملكة لحظة ، ثم رفعت راسها الى وقالت :

ــ وفى ذات ليلة من ليالى الصيف القمراء ، خيل الى انى اسمع صوت اخناتون آتيا من الصحراء ، يدعونى اليه ... فقلت : (لبيك . لبيك) ... وتجرعت السم ... وانطلقت روحى اليه ...

« فلما اقبل الصباح ، وعلم القاصى والدانى خبر موتى ، انفجر مرجل الغضب العام ، ورفض الكهنة ان احظى بما يكرم به الموتى من التحنيط ... فعاد التراب الى التراب »

وكأنما رأت الملكة وجومى لهذه النهاية ، فاحبت ان تسرى عنى ، فقالت وهى تبتسم :

ــ ولكن المحظوظ فى الدنيا محظوظ فى الآخرة ، ولو فنى جسده وصار ترابا . فقد لقيت فى حياتى من الحب ما لم تلق امراة ، حتى اذا صرت تمثالا صارت لى من الشهرة ما لم يشتهر به تمثال ، وسرقنى السارقون كما سرقت هيلانة بطلة حروب طروادة ... ولم تنته مغامراتى الغرامية بالموت ! .. كلا ! فقد استحدث لى الدهر عاشقا فى برلين

ــ عاشقا فى برلين ؟

ــ اجل ! .. انه الفوهرر ، هتلر ...

ــ اهنئك به يا مولاتى او ..؟

— لست أمزح .. فقد كانت لى فى برلين قاعة خاصة على الطراز الفرعونى ، وكان هتلر لايجد متسعا لزيارة المتحف نهارا ، فكان يزوره ليلا ، فشاع بين الناس انه يعشقنى ، وانه يأتى لزيارتى تحت جنح الليل ليامن عيون العذال !

خاتمة المطاف

ووضعت الملكة يدها فوق كاهلى ، وهى تهم بالانصراف وقالت لى : « لا أحب أن أفارقك يا بنية قبل أن أقول لك كلمة اخيرة ، هى محصل كل هذا العناء الذى لقيه اخناتون ، ويلقاه كل صاحب رسالة فى دنيا البشر :

« لكل شىء فى الحياة أوانه المرسوم ، وطوره المعلوم . ولن تقوم قائمة لأثبت الدعاوى واحقها فى غير أوانها ولو أيدها اعظم ما فى الارض من سلطان ... وقد كانت صيحة اخناتون خطوة قبل الاوان . ولا تزال كل دعوة من قبيلها سابقة للأوان ... »

فقلت أسألها : « ولماذا تظهر الدعوات قبل الاوان ، اذا لم يكن مقدرا لها الا الخذلان ؟ لماذا يشقى بها أصحابها وهم لايريدون بها الا الخير لبنى الانسان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »

ولم أتلق جوابا الا ابتسامة باهتة من الملكة ، تلاشت بها صورتها ...

وفتحت عينى ، لألقى الدنيا بهذا السؤال :

— لماذا يشقى دعاة الخير فى عالم هو الى الخير فقير ؟ .. لماذا ؟ لماذا ؟ والى متى يارب هذا الضلال ؟ ..

أعطنا يارب مزيدا من النور . وانر لنا قبل ذلك قلوبنا حتى لاتتنكر للنور ...



فهرس

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، وبثمن زهيد لايرهق احدا من عشاق القراءة والاطلاع .. وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

الكتاب	المؤلف	الموضوع
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد	تحليل لشخصية النبى محمد صلى الله عليه وسلم
ماجلان : قاهر البحار	ستيفان زفايج	قصة طواف ماجلان حول الارض
هرون الرشيد	احمد امين بك	الحياة العامة والخاصة للخليفة هرون الرشيد
أبو الشهداء	عباس محمود العقاد	قصة استشهاد الامام الحسين رضى الله عنه
جنكيز خان	ف . يان	الحياة الحربية والسياسية لجنكيز خان
قلب النسر	أوكتاف اوبرى	قصة غرام نابليون وجوزفين

الكتاب	المؤلف	الموضوع
السيد عمر مكرم	محمد فريد أبو حديد بك	قصة حياة أول زعيم شعبى لمصر الحديثة
غاندى : الثائر القديس	لويس فيشر	قصة أشهر زعيم سياسى روحى فى الشرق
زعيم الثورة : سعد زغلول	عباس محمود العقاد	قصة الثورة فى حياة الزعيم الخالدسعد زغلول
الزعيم احمد عرابى	عبد الرحمن الرافعى بك	لم يصدر بعد
بطلة كربلاء : زينب بنت الزهراء	الدكتورة بنت الشاطىء	قصة زينب بنت الزهراء ودورها الخالد فى معارك كربلاء
اشعب امير الطفيليين	توفيق الحكيم بك	قصة أخف الطفيليين ظلا والطفهم واظرفهم نادرة

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من دار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، واكشاك الصحف


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه – السور – العسيلي ، المدخل الشمالي ص . ب ٥٤٣ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعساني

حماه : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعي – ص . ب ٤٩

مكة المشرفة : السيد هاشم بن علي نحاس – ص . ب ٩٧

البحرين والخليج الفارسي : السيد مؤيد أحمد المؤيد – مكتبة المؤيد – البحرين

البرازيل : Snr Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores P.O. Box 400, Accra Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26

هذا الكتاب

نفرتيتي ربة الجمال والتاج ، وصاحبة اشهر تمثال في العالم ، وملكة مصر في عصرها الذهبي ، وزوجة اخناتون العظيم اول من نادى بديانة التوحيد قبل جميع الأديان،وأول ملك قديس عرف في العالم القديم. وكانت حياته وزوجته حياة فذة في التضحية فيمعركة الروح والحق والعدل والخير !.

وقد استوفى هذا الكتاب قصة هذين الزوجين : في حياتهما الانسانية ، وحياتهما الملكية ، وحياتهما الروحية . وصورت مؤلفته الفاضلة تلك المعركة الروحية والاجتماعية التي خاضا غمارها ، ولقيا ما فيها من صعاب وجهاد ، كما صورت حياة الشعب المصري في ذلك العصر ، وكيف تنازعته ديانتان : ديانة التوحيد التي حمل لواءها اخناتون ، وديانته الوثنية وتعدد الآلهة التي كان يدعو اليها كهنة آمون

ولعل التاريخ المصري لا يحوى معركة انتصر الباطل على الحق كهذه المعركة ، ولا مأساة انتهت حياة اخناتون وحياة زوجته كهذه المأساة،فقد ا[illegible] هو الملك والناس زهدا في الدنيا واهلها حتى شهيدا مجهولا . واعتزلت هي الدنيا ، وتنكر لها ا[illegible] فآثرت الموت على الحياة .. ولكنها ظلت حية [illegible] في تمثالها الرائع وتاريخها العظيم

